مجلة البيان   مكتبة شبكة
مشكاة الإسلامية
هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان – العدد 6 ، شوال 1407هـ يونيو 1987م

الافتتاحية

رمضان.. موسم المراجعة

بحـلـول شـهـر رمضان المبارك من هذا العام ؛ تكون مجلة "البيان" قد أشرفت على نهاية عامها الأول، وفي هذه المناسبة الكريمة - مـنـاسـبـة حلـول هـذا الشهر الكريم - يستطيب للمسلم أن يجعل من رمضان علامة يقف عندها في مسيرته ، فيحاسب نفسه ، ويضع خطة العمل للمستقبل.
وإنها لـعادة حـسـنة، وعرف طيب للمسلمين، أن يتخذوا من رمضان مغلاقاً لفـترة مضت، ومفـتاحاً لفترة أقبلت، فعلى حين يختـم غير المسلم سنة من عمره ويفـتــتـح سنة أخرى بالعربدة، والاستغراق في الشهوات والمعاصي، ومحاربة الله تعالى، وتعدي حدوده ومحارمه فإن المسلم شأنه شأن آخر: خشوع وإخبات ، وقيام بحق الله من العبادة والشكر ، وتضرع إليه تعالى ليتقبل الطاعات ، ويتجاوز عن السيئات ، ويسدد الخطا، وينير السبيل لعباده فيما يستقبلون من أيام.
وقد كان رمضان - ومازال - موسماً من مواسم الخير يغـتـنمه الأتقياء للاستزادة من صالح العمل، ويلقي بظله الظليل على العصاة والغافلين ، فيتوبون ، ويعاهدون ربهم على الإقلاع عما هم فيه، وقد يصدقون العهد، وقد يفشلون ويقعون في مهاوي الغفلة والنسيان، فالسعيد السعيد من جعل رمضان مجدداً للعزم والطاعة، وحافزاً للتمسك بحبل الله ، وفرصة يتزود فيها بزاد التقوى ، والشقي الخاسر من مرَّ به رمضان كغيره من الشهور ، لم يُعِرْهُ التفاتاً ، ولم يتعرض لنفحات الله -عز وجل- فيه.
وكما وعدنا قراءنا الكرام، عند صدور العدد الأول من هذه المجلة ، فإننا نريد أن نشركهم في تجربتنا ، ونطلعهم على طرف من معاناتنا.
وانطلاقاً من ذلك فإننا سنبوح لهم ببعض الصعوبات التي واجهتنا ، وتواجهنا.
1- أول هذه الصعوبات أننا نعمل في ظروف غير طبيعية، حيث لم نستكمل بعد كثيراً مما يتطلبه مثل هذا العمل.
2- إن مخـاطـبة الـقـارىء الـعربي من وراء الحدود، تربو في صعوبتها على مخاطبته من داخل الحدود في مثل هذه الظروف الشاقة التي تحيط بنا ، حيث قد وضعنا نصب أعيننا هدفاً، هو الحرص على أن تصل "البيان" إلى كل عربي، وتـخـاطـب كـل مـعـنِـيٍّ بالدعوة الإسلامية أينما وجد.
وقد حاولت تحقيق الغاية المرجوة قلباً وقالباً ، شكلاً ومضموناً ، ولذلك فقد مارسنا رقابة ذاتية مضنية لتجنب مواقع الخلل ومواطن الضعف ، حتى تصل الكلمة المخلصة النظيفة التي تكون لبنة بناء لا معول هدم.

3-إن حمى الفرقة والانشطار قد ضربت كل شيء في العالم الإسلامي ، ولم ينج منها ((إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ)) ، وانعكس هذا الداء الخطير على العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ، وذلك بسبب غياب المنهج الصارم، والنظرة الواضحة المحددة التي تقوّم بها الأمور ، فما يكاد صوت يرتفع بهذه الدعوة حتى تتعالى الصيحات والاستفسارات مشككة أو مشاغبة دون دليل أو برهان.
قد وجدنا - وسنجد - صعوبة واضحة وبسيطة ، وهي : أننا لسنا دعاة تعصب وتحزب ، وليس من همنا مهاجمة هذه الجهة ، أو تلك ، ولا نعتقد أن إضاعة الجهود في مثل ذلك مما يعود على المسلمين بالعزة والمنعة ، وأن مجال عملنا هو الدعوة إلى الله على بصيرة متمثلة بمنهج أهل السنة والجماعة الذي نعتقده أنه هو المنهج الوسط الذي لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، لا تطرف ، ولا تهاون ، وكل دعوة أو منهج - بخلاف ذلك - فهو حائد إلى إحدى الجهتين: غلو ، أو تحلل.
وإننا - على الرغم من كل الصعاب والمشكلات التي تواجهنا - ماضون بعون الله في طريقنا ، تحدونا آمال كبيرة ، ويدفعنا التفاؤل إلى الأفضل ، ولعل القارئ الكريم يلحظ أن هناك تطوراً ملموساً في المجلة شكلاً ومضموناً ، ونسأل الله أن يأخذ بيدنا كي تصدر المجلة كل شهر ، فالساحة الإسلامية تدعو إلى ذلك ، وعلى الرغم من سوء الواقع ، وكثرة المشاكل التي يرزح تحتها الجسم الإسلامي ؛ فإن هناك ما يدعو إلى مضاعفة الجهد من أجل بث الوعي الإسلامي والتعريف بالإسلام.
فالحضارة الغربية بشقيها -الرأسمالي والشيوعي- تبدو مفلسة لا معنى لها ، والمؤمن الذي يبصر بنور الله يرى ذلك ماثلاً للعيان ، فشبح الزوال يحيط بهذه الحضارة التي تفننت في ابتكار وسائل الرخاء المادي تفننها في ابتكار وسائل التدمير ، ولكنها لم تكتف أن عجزت عن تقديم شيء يداوي الروح المريضة ، ويبعث في النفس القلقة السكينة والراحة ؛ بل قتلت هذه الروح ، وعاشت جسماً ضخماً يبعث الرهبة والفزع ، ويحيط به العبث والخواء.
ومن جهة أخرى ، فالعالم الإسلامي يتطلع إلى البديل الذي ينقذه مما عانى- ويعاني- في ظل الأفكار غير الإسلامية ، فقد مل الكبت والقهر الذي فرض عليه من قِبل القوى الغاشمة ورموزها ، وأدرك أن الأمم التي تستورد الأفكار مصيرها أن تستجدي الغذاء والكساء وأسباب البقاء ممن لا يجود به لله ، بل ابتغاء مطامع ومكاسب ، وإلا فمصيرها الاندثار والزوال ، وأنه لا عاصم لهذه الأمم من هذه النهاية البائسة ، إلا أن ترجع إلى ربها ، تطلب منه العون والسداد ، وتثوب إلى عقيدتها المهجورة ، تستمد منها دليل العمل.
وإننا لنرى أصداء العودة تتردد في كل الجهات: على لسان الأصدقاء ، مشجعين مستبشرين ، وعلى لسان الأعداء ، محذرين ومتذمرين. ((وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ))[ال عمران:120].

دعوة كريمة

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً

عثمان جمعة ضميرية

قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمنوا ادْخُـلُـوا فِـي السِّـلْـمِ كَافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) [سورة البقرة ،الآية 208].

* عجيب أمر هذا الإنسان! إن الله تعالى قد وهبه ما يبصر به الأمور كاملة على حقيقتها، ولكن بعض الناس يأبون ذلك ، ويعطلون مواهبهم كلها أو بعضها ، فينظر أحدهم بإحدى عينيه، ويغمض الأخرى، فيرى الأشياء أجزاء وتفاريق، ويحكم عليها حكماً جزئياً قاصراً.

* ومــن ذلك:ما روي: أن ثلاثة ممن فقدوا نعمة البصر ، جمعهم مجلس واحد ، وأرادوا أن يتعرفــوا على فـيـلٍ بجانبهم ، ولما كانوا لا يبصرون ؛ فقد استعملوا أيديهم ليتحسسوا الفيلَ ويتعرفوا عليه ، وعلى شكله وهيئته ؛ فأما الأول منهم ، فقد وقعت يده على إحدى قوائم الفيل،فقال:إنه يشبه الاسطوانة،وأما الثاني فقد وقعت يده على أذن الفيل،فاعترض على الأول قائلا: إنه يشبه القربة ، وسخر الثالث من أخويه قائلاً : إنه يشبه الرمــح ، لأنه مسّ نابه. وبالتأكيد: لم يكن الفيل شيئاً مما ذكروا ، ولكنهم ما استطاعوا أن يعطوا حكماً صحيحاً، لأنهم ما استطاعوا أن يحكموا إلا على جزءٍ منه.

* وبعض الناس يريد أن يعيد قصة هؤلاء النفر ، ولكن مع الدين.. فترى بعض الناس يأخذ جانباً واحداً من جوانب هذا الدين ، ويظن أنه قد أخذ الدين كله من جميع جوانبه: فهذا تستغرقه آيات الأخلاق في القرآن الكريم وأحاديثها في سنة النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- ،والثاني تستغرقه بعض الجوانب السياسية ، فلا يجاهد إلا في سبيلها ، والثالث لا يعرف الدين إلا عبادات خاشعة يتقرب بها إلى الله تعالى ، ورابع يضع نصب عينيه بدعة من البدع ، لا يحارب من مظاهر الانحراف سواها ، وخامس يقف عند جانب العقيدة لا يتعداه إلى شيء سواه...

ومرة أخرى - بكل تأكيد - ليس الإسلام واحداً من ذاك كله فقط ، ولكنه ذلك كله بأجمعه ، بل هو أكثر من هذا كله.

* إن الإسلام عقيدة في القلب ، عقيدة حية متحركة دافعة ، وينبثق عن هذه العقيدة عبادة تتحدد فيها صلة الإنسان بربه- تبارك وتعالى-، ويقوم عليها منهج متكامل للحياة، ينظِّم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وعلاقته بالكون من حوله ، ويضع معالم العلاقة بين الأمة المسلمة وغيرها من الأمم الأخرى ، هو هذا الدين الذي أنزله الله تعالى على محمد -صلى الله عليه وسلم- ،فأكمله وأتم به النعمة ورضيه لنا ديناً:

((اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً)) [المائدة: 30].
* ولذلك أمر الله -سبحانه وتعالى- بالدخول في الإسلام كله ، فقال: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمنوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)).
إنها دعوة للمؤمنين كافة أن يدخلوا في »السلم« كافة، »والسلم هو السلام، وهو هنا: الإسلام، لأنه هو الذي يتمثل فيه السلام الكامل في داخل النفس ، حيث تصطلح كلها ، بعضها مع بعض ، وتنتظم كلها في طريق واحد وغاية واحدة.. هو الطريق إلى الله«(1).
ويتحقق هذا عندما يأخذ المسلمون بجميع عُرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ،ما استطاعوا من ذلك (2).
* وأول مفاهيم هذه الدعوة: أن يستسلم المؤمنون بكليّاتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، وفي الصغير والكبير من أمرهم ، أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضائه ، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة ، الاستسلام لليد التي تقود خطاهم ، وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد ، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير في الدنيا والآخرة سواء..
والمسلم حين يستجيب لله هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلام ، عالم كله ثقة واطمئنان ، وكله رضىً واستقرار ، لا حيرة و لا قلق ، و لا تردد ، ولا ضلال. سلام مع النفس والضمير ، سلام مع العقل والمنطق ، سلام مع الناس والأحياء ، سلام مع الوجود كله ، ومع كل موجود ، سلام يرفّ في حنايا السريرة ، وسلام يُظِلُّ الحياة والمجتمع... سلام في الأرض ، وسلام في السماء(3).
وهذه قاعدة عظيمة ، وكلمة جامعة ، تفيد وجوب أخذ الإسلام بجملته ، بأن ينظر في جميع ما جاء به الشارع في كل مسالة من نص قولي وسنة متَّبعة ، ونفهم ذلك كله ونعمل به ، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة على الآخر ، وإن أدت إلى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن وحملها على النسخ أو المسخ ، بالتأويل ، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل!!
ومن آيات العبرة في هذا المقام: أننا نجد في كلام كثير من علمائنا هدى ونوراً ، لو اتبعته الأمة في أزمنتهم لاستقامت على الطريقة ، ووصلت إلى الحقيقة ، بعد الخروج من مضيق الخلاف والشقاق إلى بحبوحة الوحدة والاتفاق.
ولذلك نعى الله تعالى ووبَّخ أولئك الذين جعلوا القرآن عضين ، فجزّؤوا كتبهم المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعض:
((الَذِينَ جَعَلُوا القرآن عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) [الحجر:91-93].((أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ

ذَلِكَ مِنكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلَى أَشَدِّ العَذَابِ ومَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)). [البقرة: 85].
وإنه لإنكار شديد على أولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، أي: يعملون ببعض منه على أنه الدين ، ويتركون بعضاً منه ، بتأويل أو غير تأويل ، كشأن من لم يصدِّق بأنه من الله.
فوجوب أخذ القرآن والدين بجملته وفهمُ هدايته من مجموع ما ثبت عمن جاء به أمر مقرر في ذاته ، سواء فُسِّرت به الآية أم لا ، لأن الآيتين اللتين تقدمتا آنفاً في جعل القرآن عضين ، وفي الإيمان ببعض، والكفر ببعض ، وما في معناهما من النصوص ، تثبت ذلك وتوضحه وتؤكده (4).
* ولا يدرك معنى هذا السِّلم حق إدراكه مَنْ لا يعلم كيف تنطلق الحيرة؟ وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان؟ ، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفته ثم تنكّرت له ، وارتدَّت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان... هذه المجتمعات الشقية الحائرة ، على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري ، وسائر مقومات الرقي في عُرف الجاهلية الضّالةِ التصورات ، المختلة الموازين.
وحسبُنا مثلٌ واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله مادياً ، وهو (السويد) ، حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام ، وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي ، وإعانات المرضى التي تُصْرَف نقداً ، والعلاج المجاني في المستشفيات ، وحيث التعليم المجاني في جميع مراحله ، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين ، وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت.. وحيث.. وحيث من ذلك الرخاء المادي العجيب.(5)
ولكن ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلوِّ القلوب من الإيمان بالله؟ والطلاق بمعدل واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبُّرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المخدرات والمسكرات ، ليعوِّض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة ، والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب.. ثم الانتحار.. والحال كهذا في أمريكا.. والحال أشنع من هذا في روسيا..
إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة ، فلا يذوق طعم السِّلْم الذي يُدْعَى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة ، ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار.(6)
وبعد هذا الاستطراد ، نعود لنرى كيف كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس لأخذ هذا الدين بجملته ؛ لأنه »لا يقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه«(7).

فقد جاء وفد ثقيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ومكثوا أياماً يفدون على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يدعوهم إلى الإسلام.. فقال له عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟ (8) فقال: إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم ، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم. فقال عبد ياليل: أفرأيت الزنا؟ فإنّا قوم نغترب ولابُدَّ لنا منه؟ قال: هو عليكم حرام ، فإن الله تعالى يقول: ((ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً)) [الإسراء: 32]. قالوا: أفرأيتَ الربا؟ قال: هو عليكم حرام. قالوا: فإن أموالنا كلها ربا؟ قال: لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)) [البقرة:278]. قالوا: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا، ولابد لنا منها! قال: إن الله قد حرمها ، وقرأ: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمنوا إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) [المائدة:90](9).

وبعد إسلامهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات ، لا يهدمها ، ثلاث سنين ، فأبى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يدعها لهم شيئاً مسمَّىً ، وإنما كانوا يريدون بذلك -فيما يظهرون -أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وزراريهم ، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها ، حتى يدخلها الإسلام - وما زالوا يسألونه أن يتركها لهم سنة سنة ، ويأبى عليهم ، حتى سألوا: شهراً واحداً ، بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى ، فسألوه أن يعفيهم من هدمها بأيديهم ، فأعطاهم ذلك. وقد كانوا سألوه ، مع ترك الطاغية ، أن يعفيهم من الصلاة ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: »إنه لا خير في دين لا صلاة فيه«(10).

وهكذا كان هذا الموقف صورة تطبيقية عملية للأمر بالدخول في السلم كافة ، فالإسلام كُلٌّ لا يتجزأ ينبغي أن يؤخذ جملة ، وإلا فما هو بدين الله الذي أراده الله ورضيه للبشر ديناً.

* يقول الإمام الشاطبي -رحمه الله-:»إن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كليّاتها وجزئياتها المرتَّبِة عليها ، وعامّها المرتَّب على خاصِّها ، ومطلقها المحمول على مُقَيَّدها ، ومجملها المفسَّر ، إلى ما سوى ذلك من مناحيها.

فإذا حصل للناظر من جملتها حكمٌ من الأحكام ، فذلك الذي نظمت به حين استنبطت ، وما مثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي ، فكما أن الإنسان لا يكون إنساناً حتى يستنطق ، فلا ينطق باليد وحدها ، ولا بالرجل وحدها ، ولا بالرأس وحده ، ولا باللسان وحده ، بل بجملته التي سمّي بها إنساناً ، كذلك الشريعة: لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها ، لا من دليل منها أيَّ دليل كان ، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل«.

* ولكن شياطين الإنس والجن ، هم الذين يزينون لبعض الناس أن يأخذوا جانباً واحداً من هذا الدين ، وأن ينصرفوا عن سائر الجوانب ، فيزعمون أن

نظم الحياة كلها.. من تعليم وجهاد وعقوبات ومعاملات.. لا ينبغي أن تكون من الدين.. والعلم كذلك لا علاقة له بالدين.. فالدين صلة روحية بين العبد وربه ، ومن يحاول أن يحكِّم دين الله في أي جانب من تلك الجوانب السالفة فهو - بزعمهم - متطرف متعصب ، بل جاهل بأحكام الدين ومفسد في الأرض!!..
وعندئذ يجب أن تُوَجَّه إليه كل التهم ، وأن تستعمل ضده كل الأسلحة التي تفتّق عنها العقل البشري في العصر الحديث.. فقد تبدلت القيم والموازين ، إذ صار الدعاة إلى الله فاسدين ومفسدين ، عابثين لاهين!! وأصبح الطغاة والمنحرفون دعاة للدين ومفتين ، وغدا الذين يحاربون الدين ويقعدون للمؤمنين كل مقعد ، غدوا حُماةَ الإسلام المدافعين عنه وعن أهله!!
ولكن ، لا عجب في ذلك ، ألم يسبق فرعون الذي عاصره موسى-عليه السلام- إلى ذلك عندما قال: ((ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ولْيَدْعُ رَبَّهُ إنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ)) [غافر: 26] ..؟
ونعود إلى ما أسلفنا الإشارة إليه عن خطوات شياطين الإنس والجن الذين يحرفون المرء عن دينه ، ويزينون له تجزئة بعض الأحكام ليؤمن ببعضها ويكفر ببعض ، إن الإنسان لن يصل إلى ذلك دفعة واحدة ، وإنما يسير مع الشيطان في ذلك خطوة خطوة ، فإذا سار معه الخطوة الأولى فقد تهيأت له الأسباب والبواعث النفسية للمسيرة كاملة ، ليصل إلى نهاية الطريق بالانخلاع من هذا الدين والخروج عنه بالكلية ، بل هو قد انخلع عنه حقيقةً عندما ترك جانباً من جوانبه.
ولذلك جاء التحذير من اتباع خطوات الشيطان ، لأنه يسير مع الإنسان خطوة خطوة ، وينقله على طريقه نقلة نقلة ، ويدخل عليه من مداخل شتى ؛ لأنه لو أراده على الخروج من دينه والانسلاخ منه دفعة واحدة ، أبى عليه ما في قلبه من إيمان وما في نفسه من حمية للدين ، ومعرفة للعداوة الأبدية بين الشيطان والإنسان.. ((ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) [البقرة: 168].
وحذرنا الله سبحانه وتعالى ، من الزلل في طريق الإسلام ، وبيَّن عاقبة ذلك ومآله فقال: ((فَإن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [البقرة: 209].

الهوامش:

1- انظر: دراسات قرآنية ، للأستاذ محمد قطب ،ص 303-304.
2- تفسير ابن كثير 1 /248،مكتبة الرياض الحديثة.
3- في ظلال القرآن للأستاذ سيد تطب:1/206-207، وانظر: منهج الإسلام في الحرب والسلم: ص35 ومابعدها.
4- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: 2 / 257 ، ابن كثير: 2 / 558.

5- انظر في ذلك تقريراً لمجلة أخبار اليوم نقله المرحوم سيد قطب في الظلال ، وفي: الإسلام ومشكلات الحضارة: ص 60 وما بعدها ، وتقريراً آخر لرئيس تحرير مجلة روز اليوسف ، نقله الدكتور القرضاوي في كتابه الإيمان والحياة ، ص 74 وما بعدها. وهذه الأرقام كانت ثروة كبيرة في نهاية الأربعينات.

6- الظلال: 2/211 ، وانظر أيضاً: من روائع حضارتنا ، د. مصطفى السباعي: 3 -15 ، جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب: ص 115 وما بعدها ، إنسانية الإنسان ، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل.

7- نص جواب الرسول -صلى الله عليه وسلم- لجماعة من شيبان بعد أن عرض عليهم الإسلام وسمع منهم مقالتهم ، والقصة طويلة أخرجها الحاكم وأبو نعيم والبيهقي ، وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية: 3 / 143-145 ، وقال: هذا حديث غريب جداً وقد ورد من طريق أخرى.

8- قاضاه مقاضاة: جعل بينه وبينه قضاء محكماً ، وحكماً فاصلاً ، وذلك هو القضية ، ويريدون قضية الصلح ، يكتبون بذلك بينهم كتاباً ، فذلك هو المقاضاة.

9- انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد ، لابن القيم الجوزية: 3 / 56 -57 بتحقيق محمد حامد الفقي ، إمتاع الأسماع للمقريزي:1/492 ،بتحقيق أحمد محمد شاكر.

10- انظر: سيرة ابن هشام ، بهامش الروض الأنف: 2 /326،مسند الإمام أحمد:3/341،زاد المعاد لابن القيم ، المرجع السابق ، وقارن بفقه السيرة للغزالي مع تخريج الألباني:ص 450.

التجديد في الإسلام

صحوة الجهاد

(6)

التجديد الجماعي:

كانت النتيجة التي خلص إليها الأخ الباحث الذي كتب الحلقات الأولى من هذا الموضوع: أن التجديد بعد عمر بن عبد العزيز هو في الغالب تجديد جماعي ، فالذي يقوم به لـيـس رجلاً واحداً بل أكثر من واحد في كل عصر ، ونقل ترجيح الإمام ابن حجر لذلك ، وهــو مــا رجـحـه الذهبي أيضاً وابن الأثير ، كما نقل كلام ابن الأثير بأن التجديد لا يـلـزم أن يكون من جانب الفقهاء خاصة ، بل إن الأمة تنتفع أيضاً بأولي الأمر وأصحاب الحـديـث والقرّاء...

وهذا الرأي هو الصواب -إن شاء الله- وخاصة في العصور المتأخرة التي يصعب أن يـقـــوم رجل واحد بأمر التجديد فيها ، والعجيب أن الذين تكلموا

في التجديد لم يذكروا الــولاة بعد عمر بن عبد العزيز ، بل اقتصروا على العلماء ،بل اقتصر بعضهم على علماء مذهبه ، وإذا كان التجديد جماعياً فما المانع أن يقوم ولاة بالتجديد في ناحية ويقوم علماء بالتجديد فـي نــاحية أخرى ، فقد يكون تجديد الولاة ببعث روح الجهاد في الأمة وإعادتها إلى عز بعد ذل، وهيبة وكرامة بعد إهانة، مع أن الجهاد لابد يستتبع العلم ودراسة سيرة السلف من الصحابة والعلماء والمجاهدين ، فتعود للأمة روحها.

ما قبل الإفاقة:

ومن الأمثلة البارزة على التجديد الذي يكون ببعث روح الجهاد في الأمة وإعادة الثقة إلى نفسها: ما قام به الملك الصالح المجاهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وما قام به بعده الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري.

وحتى نعلم قيمة ما أتى به هذان الرجلان لا بأس من أن نطل إطلالة على العصر السابق لهما.

في أواخر القرن الخامس الهجري كان قد انتهى دور السلاجقة الكبار الذين كان لهم دور كبير في إعادة القوة للمسلمين ومعركة (ملاذ كرد) التي انتصر فيها (ألب أرسلان) على الروم انتصاراً ساحقاً جعلت الروم يفكرون طويلاً قبل محاولة الاستيلاء على أي بلد من بلاد المسلمين. وجاء بعد هؤلاء أولادهم وأحفادهم وتمزقت الدولة شرّ ممزق ، وتحولت كل مدينة ، بل كل حصن أو قلعة إلى دولة ، وكلٌ يحاول امتلاك أكبر عدد ممكن من الحصون ، ويستنجدون بالبعيد والقريب والعدو والصديق لحماية أنفسهم وزيادة ملكهم ، فلا حصلوا دنيا ولا أقاموا ديناً ، وجاءت الحملات الصليبية إلى بلاد الشام ، ولكنها لم تحرك فيهم ساكناً ، بل استنجد ملك دمشق بالصليبيين خوفاً من عماد الدين زنكي ، وكذلك فعل (شاور) وزير العبيديين في مصر ، طلب الحماية من الصليبيين خوفاً من نور الدين محمود ، وأما الخلافة العباسية في بغداد فقد كانت من الضعف بمكان ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذا السبيل.

هذه هي الحالة المؤسفة التي آلت إليها بلاد المسلمين في مطلع القرن السادس ، وهي حالة تمر بها الشعوب أحياناً ، فتصبح أسيرة الذل والأوهام والنظر القاصر والأنانية المفرطة التي تؤدي إلى التكالب على الدنيا دون النظر إلى العواقب.

بعد هذا التفرق وهذا الضعف ؛ جاء نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين ، فأعادا الثقة إلى الأمة بجهادهما وإخلاصهما.

التجديد الجهادي:

إن العلامة البارزة في شخصية هذين الملكين هي الجهاد ، وإن كانت لهما مميزات أخرى من حب العلم وإقامة العدل وفتح المدارس ، ومن صفات

شخصية مثل: التواضع والحلم والشجاعة ، ولكن استئناف الجهاد في حياة الأمة ، الذي أصبح همهما وديدنهما هو موضع التجديد.
قال المؤرخ أبو شامة عن نور الدين:»وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ، فقال له قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، فقال: يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا؟«(1). ومن حبه للجهاد أنه طلب من أمراء الجزيرة النجدة للوقوف في وجه الفرنج ، فأجابه البعض وتلكأ أحدهم ثم عزم ، وعندما سئل عن السبب قال: »لقد كاتب نور الدين الصلحاء والعلماء في الدعاء له ودعوة الناس للجهاد ، فإن لم أساعده أخذ ملكي مني«(2).
وقال لصاحب الروم (قلج أرسلان): »أنت مجاور الروم ولا تغزوهم وبلادك قطعة كبيرة من بلاد المسلمين، ولابد من الغزاة معي«(3). وأما تفاصيل غزواته وجهاده للصليبيين وانتصاره عليهم في أكثر المعارك ، واستعادة كثير من البلدان والحصون منهم ، فهو مثبت في كتب التاريخ لمن أراد الرجوع لذلك ، وكان رحمه الله يقدّرُ في نفسه أن يفتح القدس ، وقد طلب تهيئة المنبر لليوم الذي يستعاد فيه المسجد الأقصى ، ولكن فاته الأجل وقدر الله ذلك للسلطان صلاح الدين. وأما أعماله الأخرى العظيمة: فهو الذي أمر صلاح الدين بإنهاء الدولة العبيدية في مصر وقطع الخطبة للعاضد ،وأن يخطب للخلافة العباسية ، وألح عليه في ذلك حتى استجاب له(4).
»وهو الذي جدّد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات ، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ، وبنى داراً للعدل ، وخاف الأمراء من إحضارهم لهذه الدار فأنصفوا من أنفسهم ، وأنصفوا الناس خوفاً من أن يعلم بهم نور الدين«(5).
وإذا كان صلاح الدين هو الذي أكمل هذا الاتجاه وقام به على أكمل وجه ، فإن الذي بنى هذا ومهّد له، وولّى أمثال صلاح الدين على مصر وغيرها ، هو نور الدين محمود -رحمه الله-.

التجديد الجهادي عند صلاح الدين:

كان أول عمل عظيم قام به هذا السلطان هو إنهاء الدولة العبيدية بمصر ، وعَزَل قضاتهم ، وحوَّل سجونهم إلى مدارس لطلبة العلم ، وبعد وفاة السلطان نور الدين محمود لم يخلفه رجل قوي ، مع أن المرحلة حرجة وتحتاج إلى مثل هذا الرجل لمواجهة الصليبيين ، فتصدى صلاح الدين لهذه المسؤولية ، وكانت الخطوة الرئيسية هي توحيد بلاد الشام ومصر وضم أكبر عدد ممكن من الأقاليم إلى هذه الوحدة ، فضمت اليمن والحجاز وبعض أقاليم الجزيرة ، حتى يتسنى حشد الطاقات لمقارعة الفرنجة ، وجاءت سريعة نتائج هذه الوحدة مع إضافة النوايا الصادقة ، فانتصر المسلمون في (حطين)

انتصاراً ساحقاً ، وكان الهم الأكبر لدى السلطان هو تخليص المسجد الأقصى من الكفرة ، ففتح كل المدن الداخلية في فلسطين ، وتم بعد ذلك فتح القدس بعد أن بقيت أسيرة ما يقارب تسعين سنة. وبعد هذه الانتصارات استولى حب الجهاد على قلبه ، فأصبح شغله الشاغل وهمه القائم القاعد ، فلا حديث له إلا الجهاد ، وفنون الحرب ، وكيفية استصلاح القلاع ، وصناعة أدوات القتال ، وألف العلماء في الجهاد وأصبح هو حدث الساعة.

وصف المؤرخ عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة ، وصف صلاح الدين فقال:»كان -رحمه الله- شديد المواظبة على الجهاد ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد وفي الإرفاد لصدق وبرَّ في يمينه ، ولقد هجرَ في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة«(6).

وقال عنه القاضي الفاضل: »وأما صبره في الجهاد ، فقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمامل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس ، ومع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى المغرب ، وهو صابر على شدة الألم ، وكان يقول: إذا ركبتُ يزول عنِّي ألمها حتى أنزل«(7).

وكان السلطان قد عانى الأهوال في حصار عكا الذي استمر أكثر من سنتين ، ومع ذلك صابر الكفار كل هذه المدة »ويكون هو أول راكب وآخر نازل.

ومرض وأشرف على التلف ثم عوفي". ويضيف الذهبي:"ولعله وجبت له الجنة برباطه هذين العامين«(8). وكان في حصار القدس يحمل الحجارة بنفسه حتى اضطر من حوله من الأمراء والوزراء إلى القيام بنفس العمل. بل تطلعت نفسه إلى أبعد من هذا ، تطلعت إلى مهاجمة هؤلاء الصليبيين في عقر دارهم ، يقول لصديقه الحميم القاضي الفاضل: »متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله ، أو أموت«(9).

بهذه النية الصالحة يسر الله استرجاع القدس ، وفتح كل المدن الداخلية ، ولم يبق للصليبـيـين سوى بعض المدن الساحلية. وبعد الحصار الدامي حول عكا ، رجع إلى دمشق مستريحاً بعض الوقت ، فوافاه الأجل صبيحة يوم الأربعاء من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وبوفاته -رحمه الله- انتهت هذه الفترة من الزخم الجهادي وتجميع قوى المسلمين وصهرهم في بوتقة عمل موحد ، ولم يأت بعده من استطاع إكمال المهمة، رغم مدافعة أولاد أخيه العادل للصليبيين ، وخاصة في مصر. ولم يتحرر بقية الساحل من الأعداء إلا في عهد المماليك.

العلماء مع صلاح الدين:

إذا كان الشغف بالجهاد وحمل هموم المسلمين وتحرير أرضهم من الكفرة هي أبرز صفات صلاح الدين ، إلا أنه حُبَي بصفات أخرى جعلته موضع احترام ومحبة المسلمين ، بل موضع احترام أعدائه من الصليبيين ، وجعلت أهل دمشق يحزنون على فراقه ما لم يحزنوا على ملك قبله.
قال كاتبه العماد الأصفهاني: »ومحافله آهلة بالفضلاء ، ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد ، حليماً ، مقيلاً للعثرة ، نقياً تقياً ، ما ردّ سائلاً ، ولا خجّل قائلاً«(10).
وقد ارتحل هو وأخوته وأمراؤُه إلى المحدث أبو طاهر السَّلفي المقيم بالإسكندرية ، وسمع منه الحديث. وقد اقترح عليه أن يسمع الحديث وهو في المعركة بين الصفين فاستجاب لذلك.
وقد هيأ الله له بطانة صالحة من العلماء ينصحونه ويستمع لهم ، منهم الشيخ علي ابن إبراهيم بن نجا الأنصاري الحنبلي ، قال أبو شامة عنه: »كان كبير القدر معظماً عند صلاح الدين ، وكان واعظاً مفسراً«(11)..
ومنهم الحافظ القاسم بن علي بن الحسن بن عساكر ، جمع كتاباً كبيراً في الجهاد ، وسمعه منه كله السلطان في سنة ست وسبعين (12).
ومن العلماء المجاهدين مع السلطان ، الفقيه عيسى الهكاري ، قاتل يوم (الرملة) قتالاً شديداً وأسر ، ثم افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار.
ومنهم الشيخ أبو عمر المقدسي ،وهو من العلماء الصالحين المجاهدين ، وكان لا يترك موقعة إلا حضرها، والشيخ عبد الله اليونيني الملقب بأسد الشام. وكان أمّاراً بالمعروف ، لا يهاب الملوك ، وما فاتته غزاة.
ومن العلماء الكبار الذين عاصروا صلاح الدين ثم أخاه العادل بعدئذ والذين يمثلون التيار العلمي المكمل للتيار الجهادي الحافظ الكبير عبد الغني المقدسي ، والعالم المجتهد الرباني ابن قدامة المقدسي صاحب كتاب (المغني) ، كما هيأ الله لهذا السلطان وزير صدق ، وكاتباً بليغاً مجدداً في الكتابة ، وناصحاً مشفقاً على الأمة الإسلامية ، ألا وهو: عبد الرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل ، قال العماد الأصفهاني: »والسلطان له مطيع ، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه ، ومقاليد غناه وغَنائه ،وكانت كتابته كتائب النصر...«(13). وقال العماد يصفه: »وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ،دائم التهجد ، يشتغل بالتفسير والأدب«(14) وقال الذهبي عنه: »وقد انتهت إليه براعة الترسل ، وبلاغة الإنشاء ،وله في ذلك اليد البيضاء والمعاني المبتكرة والباع الأطول«(15).
وكان ناصحاً للسلطان ،وإذا رأى شيئاً من المنكرات في جيشه بيَّن له ذلك وطلب منه إزالتها ، كما فعل في حصار عكا.

ومع حب صلاح الدين للعلماء وتقريبه للفضلاء، لابد أن نذكر مأثرة أخرى له وهى: زهده وعدم اشتغاله بتثمير الأموال والضياع. قال ابن شداد كاتب سيرته: »لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً ، ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة«(16).
رحم الله صلاح الدين ونور الدين ، وجزاهما الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الهوامش:

1- الروضتين بأخبار الدولتين / 8.
2- ابن الأثير: الكامل 11 / 302.
3- المصدر السابق 11 /392.
4- الكامل 11/369.
5- الروضتين / 7 - 8.
6- الروضتين /221
7- المصدر السابق /222.
8- سير أعلام النبلاء 22 / 210.
9- الروضتين/222.
10- سير أعلام النبلاء21/287.
11- المصدر السابق 21 /394.
12- المصدر السابق21/411.
13- سير أعلام 21 / 340.
14- المصدر السابق 21/343.
15- المصدر السابق 21/339.
16- الروضتين/217.

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

جهاد المسلمين الأفغان يمر بأخطر مراحله

إعداد. محمد أحمد عبد الله

مقدمة:

سيلاحظ القارئ أن هذه الدراسة عن أفغانستان جاءت طويلة بعض الشيء ، ومع أننا -من حـيـث الـمبدأ- لا نحب إملال القارىء، ولسنا من هواة الإسهاب في غير ما طائل؛ لـكـن موضوعاً بأهمية موضوع أفغانستان يحتم علينا أن نعالجه بعيداً عن التسرع ، وعن أسلوب الاستنكار والشجب.
فـقـضـيـة أفـغـانستان أكثر من قضية دولة صغيرة تجتاحها دولة كبرى ، وأكثر من نموذج لنظام يستـمـد الوقوف على قدميه من قوة من وراء الحدود ، بل هي قضية الحرية عندما يضيق بها أعـــداء الحـــريـة ، وقـضـيـة الإسلام حينما

يقع بين فكَّي القوى الكبرى ، قوة تحاول سحقه ، وقوة تساوم عليه ، وليست القــوة الـتـي تسـاوم علـيه بأقل خبثاً وأخف عداءً من تلك التي تحاول سحقه!.
لذلك لابد من معالجة تكشف طرفاً من المناورات والمساومات ، وتحلل جانباً من الدوافع التي قد تكون خافية وراء التصريحات والتحقيقات.
مـمـا لا شك فـيـه: أن المعارك التي يخوضها المجاهدون المسلمون الأفـغـان ضــد الـغــزاة الشيوعيين من أخطر معارك المسلمين في عصرنا الحديث وأعمقها أثراً، فانتصار المجاهدين يعني قيام الخلافة الإسلامية في شبه القارة الهندية ، وتحرير الجمهوريات الإسلامية المجاورة لأفغانستان في جنوب الاتحاد السوفييتي ، ويعني أخيراً :انهيار النظام الشيوعي وسقوط الإمبراطورية السوفييتية ، وعلى نقيض ذلك فهزيمة المجاهدين -لا سمح الله- تعني سقوط آخر سد منيع أمام الشيوعيين في شبه القارة الهندية ، بل وفي العالم الإسلامي أجمع ، ولهذا فقد قلنا غير مرَّة: إن المجاهدين الأفغان يقاتلون نيابة عن المسلمين عامة ، والمعركة معركة كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
وفي العدد الأول من مجلتنا "البيان" الصادر في غرة ذي الحجة من عام 1406 هـ: وجهنا رسالة مفتوحة إلى المجاهدين الأفغان ، أعربنا فيها عن عواطفنا نحو إخواننا الأفغان ومحبتنا لهم ، وتحدثنا عن أهمية جهادهم ، وعن وجوب الأخذ بأسباب النصر المادية منها والمعنوية ، وحذرناهم من التفرق والاختلاف ، كما حذرناهم من المخربين الذين يحيكون المؤامرات ويفسدون داخل الصف ، ولا يصلحون ، وبيّنا ضرورة الاستقلالية في اتخاذ القرار ، وعدم الاعتماد في الجهاد على الغرب الصليبي أو الشرق الشيوعي ، وأشرنا في نهاية الرسالة إلى الأسباب التي دعت حكام موسكو إلى الاعتماد على عدو الله -الذي أسماه أبوه: نجيب الله- ليكون رجل المرحلة القادمة في أفغانستان.
وبعد صدور العدد الأول علمنا أن بعض القادة الأفغان أبدوا ارتياحهم من الرسالة ، ووصلتنا رسائل من كثير من القراء يقولون فيها: إن الرسالة جاءت في وقتها المناسب ، ويؤكدون على وجوب التناصح بين الدعاة إلى الله ، ويطالبون بتكرار كتابة مثل هذه الرسالة ، ومع ذلك كنا ننتظر أن بعض الناس -غفر الله لنا ولهم ، ورزقنا وإياهم الاستقامة- سوف يحمِّلون أقوالنا ما لا تحتمل ، ويفسرون كلماتنا تفسيراً ظالماً ، وصدق ما توقعناه ، ولكنهم كانوا قلة والحمد الله ، ونصيحتنا لكل مسلم ، أن يحسن الظن بأخيه ، ويتقي الله فيما يقوله ويحدِّث به الآخرين ، وليفكر بعقله وليس بعقل صديقه أو أستاذه.
ومما ينبغي التأكيد عليه: أن معظم المسلمين يفكرون -عندما تمر بهم أحداث غير عادية- بعواطفهم وليس بعقولهم ، ويمارس شيئاً غير قليل من الإرهاب الفكري ، بحيث لا يجرؤ المفكرون وأصحاب العقول على إبداء ما عندهم من

آراء خوفاً من الاصطدام بمشاعر الجماهير، ولهذا فبعض المفكرين يلجأون إلى الصمت ، وبعضهم يقول ما يُرضي الجماهير، ويخالف قناعاته ، بل قد يعتلي المنابر ويشحن العواطف المتأججة بأمور لا يعتقدها ولا يؤمن بها.. وكم جرّت هذه الأساليب والممارسات من كوارث ومحن على أمتنا الإسلامية!، ورحم الله من قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا بنفس حرة بلـغت من العلياء كل مكان

والأصل في هذا قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فـي الحـديـث الذي رواه مسلم في "صحيحه": »الدين النصيحة ، قلنا: لَمْن؟ قال: لله ،ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم«.

والنقد البناء الهادف صورة من صور التناصح ، ويأثم من قصّر في نصح إخوانه المسلمين رغبة أو رهبة ، ومن كان هدفه إرضاء الله لا يخشى الناس ، لأن إرضاءهم غاية لا تدرك.

ومن هذا المنطلق نؤكد بأننا سوف نمضي في طريقنا لا نخشى ظلم الظالمين ، ولا سطحية الساذجين ، أو مزايدات المراوغين ، وسيعلم المنصفون غداً الصادق مِن غيره ، والناصح مِن المتلاعب.

وسوف نتحدث في هذا البحث عن أخطر المراحل التي يمر بها الجهاد الإسلامي في أفغانستان:

أعلن الزعيم السوفياتي غورباتشوف مبادرته القاضية بسحب القوات السوفيتية المسلحة من أفغانستان خلال أقل من ثلاث سنوات ، في إطار برنامج سياسي لحل النزاع الأفغاني.

وبعد زيارة قام بها "نجيب الله" إلى موسكو أعلن عن مبادرة سلمية،وعن وقف لإطلاق النار من جانب واحد يمتد لستة أشهر ، وتتألف مبادرته من الفقرات التالية:

1- وقف إطلاق النار لمدة ستة أشهر ، لوقف سفك الدماء في أفغانستان .

2- مشاركة جميع الأطراف في الشؤون السياسية والحياة الاقتصادية في البلاد .

3- عدم ملاحقة أي شخص بسبب نشاطه السابق ، وإصدار عفو عام عن الجميع ، بما في ذلك الجنود والضباط الفارون من الجيش .

4- عودة الوحدات العسكرية السوفييتية "المحدودة" إلى بلادها خلال مدة ثلاث سنوات، ويمكن أن يغادر القسم الأكبر منها أراضي أفغانستان خلال ستة أشهر إذا ما سارت الأمور على ما يرام .

5- إجــراء مـفـاوضـات مع أطـراف الـنـزاع، وتـشـكـيـل حكومة ائتلافية تضم شخصيات معارضة، وتـشـكـيـل لجـنـة للـمـصـالحـة الوطنية يتمثل فيها قادة الثوار بشكل متساوٍ مع الأطراف الآخرين.

كان ذلك في أوائل شهر يناير من عام1987 ، ووقف إطلاق النار يكون ساري المفعول ابتداء من 15/1/1987.
وكان نجيب الله ينظم جولات ، ويعقد الندوات قبل هذه المبادرة وبعدها ، ويخاطب الجماهير قائلاً :
»أنا مسلم ، وكل عائلتي مسلمون ، وأنتم كذاك مسلمون ، وأنا عضو في الحزب لأنني أفغاني ثوري ، وكلنا نريد القرآن الكريم ونقرؤه ، ونراعي أحكام الشريعة ، ونعمل من أجل عقيدة الدين ، ولا يوجد إله غير الله ، ومحمد رسوله.. وقال: إننا نعمّر المساجد والأماكن المقدسة التي يحاول الأعداء هدمها ، وكان يحمل القرآن الكريم ويتلو آيات منه.. ورحب عدو الله بعودة "ظاهر شاه".
وسوف نعرض فيما يلي ردنا على هذه المبادرة ، وموقف المجاهدين منها ، وما هي الآثار والنتائج المتوقعة. والله أعلم.

أولاً: المبادرة سوفيتية وليست أفغانية:

جاءت مبادرة "نجيب الله" بعد المبادرة التي أعلنها غورباتشوف ، ومن يتأمل المبادرتين يعلم أن نجيب ليس أكثر من ببغاء يردد الأقوال والتصريحات التي وردت على لسان غورباتشوف ، وهو لم ينكر ذلك ، فقد جاء في تصريحاته بعد زيارة الكرملين أنه اتفق مع الزعيم السوفياتي على طرح هذه المبادرة ، والرئيس الأفغاني موظف ذليل في المؤسسة الشيوعية ، وهو يعرف مصير من سبقه من الرؤساء الأفغان ابتداء بـ: نور محمد طراقي، وانتهاء بـ: براك كارمل.

ثانياً: هل يرغب السوفييت في الانسحاب من أفغانستان؟!

نعم ، إن إدارة الكرملين تحرص على الخروج من أفغانستان وذلك للأسباب التالية:
1- إن الاتحاد السوفييتي يعاني من أزمات اقتصادية خانقة لا يستطيع معها الاستمرار في تحمل تكاليف الحرب التي بلغت حوالي [70 مليون دولار يومياً].
2- تكبد الجيش السوفييتي خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ، وقد تمكن المجاهدون من الحصول على تقرير رسمي صادر عن الحكومة الأفغانية في كابل ، جاء فيه ما موجزه بأن المجاهدين أسقطوا [206] طائرة خلال عام 1986م ، مما أدى إلى انهيار معنويات العسكريين ، وفي شهر نوفمبر من عام 1986 سجلت حالات عصيان لبعض الطيارين لأوامر التحليق أو الفعاليات الجوية فوق خط جلال آباد ، أو من جلال آباد، حيث أن هذه الأراضي كان الطيارون يخشونها جداً ، وتقول المصادر المجاهدين: أنه تم قتل أكثر من 50000 جندي روسي.

3- انتشرت المخدرات بين العسكريين السوفييت الغزاة ، وانتشرت أيضاً الأمراض والأوبئة المحلية الخطيرة.
4- الذين يحكمون أفغانستان بشكل فعلي هم المستشارون السوفييت ، وهؤلاء أصبحوا يتلقون هدايا من المسؤولين الأفغان ، فمستشار "كارمل" يسمى "سوسولوف" وقد تلقى هدية من وزير الدفاع عبد القادر أثناء سفر الأول قيمتها [600] ألف روبية من المنسوجات الحريرية ، وقدم له الدكتور نجيب هدية قيمتها [200] ألف روبية ، ويقاوم الزعماء السوفييت بشدة نمو الروح الاستهلاكية المترفة بين المسؤولين وعموم أفراد الشعب لأن ذلك سيزيد من المطالب الاستهلاكية ، ولهذا فلقد تم عزل عدد من كبار المسؤولين الذين عملوا في أفغانستان رغم أن بعضهم كان مقرباً عند "بريجنيف".
5- الحدود المفتوحة حالياً بين الاتحاد السوفييتي وأفغانستان تسمح بانتقال الكتب والرسائل والأخبار إلى جنوب روسيا ، وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى نمو الوعي الإسلامي عند المسلمين في هذه المناطق ، وما أخبار مظاهرات "كازخستان" عنا ببعيدة ، لقد نشرت وكالات الأنباء معلومات كثيرة عن الأنشطة الإسلامية السرية في تركستان ، وطاجكستان ، وأزبكستان ، وبخارى ، وسمرقند وغيرها من مناطق المسلمين في الاتحاد السوفييتي.. وأصبحت هذه الأنشطة تقلق قادة الكرملين أشد القلق ، فكم من مسؤول شيوعي عزل لأنه فشل في مهمته ، وكم من مؤتمر كان له أثر مضاد في بلدان المسلمين .. واستمرار احتلال أفغانستان سوف يضاعف اتصال المسلمين في الشمال والجنوب وتعاونهم ضد الشيوعيين.
6- خسر السوفييت نفوذهم في الأمم المتحدة ، فبعد أن كان السوفييت يربحون كل قضية يجري التصويت عليها داخل المنظمة الدولية ، وتلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام حق (الفيتو) لإلغاء القرار ، انقلبت الأمور بعد احتلالهم لأفغانستان ، وصاروا لا يطمحون إلى أكثر من 18 صوتاً عند أي اقتراع ، وأصبحوا يلجأون إلى حق النقض وهذا يعني خسارتهم في مجال الدبلوماسية العالمية.. وخسر السوفييت أيضاً نفوذهم في دول عدم الانحياز التي زاد عددها من 77 دولة لكي يصبح بعد الغزو السوفييتي لأفغانستان 94 دولة.
7- إن غورباتشوف يقود تياراً جديداً في الحزب الشيوعي ينادي بإصلاح الأوضاع ومحاربة الفساد المستشري ، وينظر إلى ما جرى في أفغانستان على أنه من أخطاء القيادة السابقة ، ويحاول إنقاذ جيشه ونظامه من هذه الورطة.

ثالثاً : وهل يقبل السوفييت الانسحاب دون قيد أو شرط ؟!

يقول بعض الطيبين : هذه المبادرة تعني أن السوفييت قد أفلسوا وفشلوا ، وهم عازمون على الرحيل دون قيد أو شرط !!
ونحن نتمنى أن يكون الأمر كما يقول إخواننا ، ولا ننكر أن السوفييت دفعوا ثمن الاحتلال باهظاً ، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا البحث ، ولكن من خلال متابعتنا للأحداث ، ومن خلال قراءة تصريحات السوفييت وعملائهم في كابل ، نجد أن هذه المبادرة تعني أسلوباً آخر يسلكه الشيوعيون ، والخطأ في التقدير قد يقود إلى كوارث ومحن جديدة لاقبل للإسلاميين بها.
وللإجابة على هذا السؤال لابد من عرض سريع لأطماع السوفييت في أفغانستان.
- في 28 شباط 1921 م وقع الزعماء السوفييت والأفغان معاهدة ألزمت الطرفين بتحرير شعوب الشرق ، ووعد الروس فيها بمساعدة تقنية واقتصادية لأفغانستان.
- في عام 1933م اغتال الموالون للسوفييت الملك نادر شاه ، وجرى تعيين ابنه ظاهر شاه الذي حكم البلاد مدة أربعين عاماً ، وفي عام 1933 وقع السوفييت مع الأفغان معاهدة تقضي بعدم السماح لقوة أجنبية بالتمركز في أراضيها ، وعدم انتهاج سياسة معادية للسوفييت.
- وفي عام 1955 زار بولغانين وخروتشوف كابل في كانون أول في طريق عودتهما من الهند ، وجددا مع رئيس الوزراء محمد داود معاهدة 1933 ، ووقعا قرضاً لأفغانستان مقداره مائة مليون دولار.
- في أواخر الأربعينات برزت حركة يسارية معارضة في المدن تتستر تحت عباءة الديمقراطية ، وتسمى "يقظة الشباب" واستمرت الحركة بين (1949-1952) وكانت إرهاصاً لمولد الحزب الشيوعي ، وكان طرقي وكارمل - عضوين في الحركة.
وطرقي كان أكبر الشيوعيين في السن ، فلقد ولد عام 1917 أي في أيام الثورة الروسية ، وعرف في الأربعينات ككاتب للقصة القصيرة ، وعندما أوقف نشاط الحركة الديمقراطية 1952 أرسل طرقي كملحق ثقافي في سفارة أفغانستان في واشنطن ، وعاد إلى أفغانستان بعد ثورة داود ، وأصبح مديراً لإذاعة كابل.. ثم استقال ليتفرغ للكتابة ، ونشر حتى عام 1978 م ما ينوف على الثلاثين كتاباً ، احتلت القصة معظمها ، وتحدث في ثلاثة منها عن الفلسفة الشيوعية.
وكان كارمل أصغر من طرقي بعشرين سنة ، وهو ابن ضابط بوشتوني ، وكان من قادة طلاب الحركة الديمقراطية.
- تأسس حزب "خلق" الشيوعي سنة 1951 ، وبعد ظهور بعض الحرية السياسية سنة 1964م ، عقد الحزب مؤتمره العلني الأول في كابل في كانون الثاني سنة 1965م ، وذلك استعداداً للانتخابات المتوقعة بعد فترة ، ولم يكن تعداد أعضاء الحزب في ذلك الوقت يتجاوز عدة مئات ، وكان

محصوراً في كابل ، وقد انتخب مؤتمره الأول والوحيد لجنة مركزية من تسعة يرأسها "طرقي" كأمين عام.
وأصدر الحزب جريدته "خلق" عام 1966م ، وظهر منها ستة أعداد بين 11 نيسان و 16 أيار ، ثم أغلقتها الحكومة.
- انقسم الحزب على نفسه بعد إغلاق صحيفته "خلق" بعد وقوع خلاف شديد ، هل تصدر الجريدة سراً ، وهو الأمر الذي كان يدعو إليه كارمل ، أو إيقافها ، الأمر الذي تبناه طرقي . وعند ذلك أصدر كارمل صحيفته الخاصة "بارشام" أي الراية ، وكانت سرية في البداية ، ثم علنية في جو الحرية النسبية قبيل انتخابات 1969 م ، ثم عادت للسرية ، وكانت "بارشام" تتبنى خطاً شيوعياً اكثر تصلباً من "خلق".
- وفي انتخابات 1969 نجح عضوان من الشيوعيين ، وهما حفيظ الله أمين ، وبابراك كارمل ، وكان زمام المبادرة بيد "بارشام" وكان لهذه الحركة نشاط واسع في القوات المسلحة ، وكان هناك تعاون بينهم وبين رئيس الوزراء محمد داود.
- وفي 17/7/1973 قام محمد داود بانقلاب عسكري أطاح بابن عمه محمد ظاهر شاه ، وقد نفذ الحركة الانقلابية "300 ضابط" لم يكن بينهم سوى "10 ضباط " محايدين ، وما تبقى كانوا شيوعيين ، وشكل داود حكومة ضمت عدداً من الشيوعيين وأنصارهم.. ومنذ بداية انقلاب داود بدأ الاستعمار السوفييتي لأفغانستان بشكل غير مباشر.
- وفي عام 1977م شعر محمد داود بخطر الشيوعيين وخشي أن ينقلبوا عليه فالتفت نحو إيران الشاه ، ونحو الولايات المتحدة ، وحصل على مساعدات كان من آثارها إقصاء الوزراء الشيوعيين عن الحكم ، وحاول التعاون مع خصومهم التقليديين .
- شعر الشيوعيون بالخطر وتوحدت كلمتهم ، وقاموا بانقلاب عسكري في 30/4/1978م وأطاحوا بحليفهم التاريخي محمد داود ، وأعلنوا عن تشكيل مجلس لقيادة الثورة برئاسة نور محمد طرقي ، وأصبح نائبه بابراك كارمل ، وتم الإعلان عن جمهورية أفغانستان الديمقراطية.
- وبدأت فيما بعد صراعات أجنحة الحزب الشيوعي الأفغاني ، فقام حفيظ الله أمين بإقصاء محمد نور طرقي ، وفي أواخر عام 1979 تدخلت القوات الروسية وأعدموا حفيظ الله أمين ، ونصبوا بابراك كارمل رئيساً.
- وفي 4/5/ 1986 عين السوفييت رئيس المخابرات الأفغانية (خاد) أميناً عاماً لحزب الشعب الديمقراطي.
وبلغت المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفييتي لأفغانستان (750 مليون) دولار حتى عام 1975 ، وإذن كان السوفييت قبل احتلالهم لأفغانستان يحكمون البلد بشكل غير مباشر، وأثناء حكم ظاهر شاه وابن عمه محمد داود قام السوفييت بتشييد طرقات وجسور تربط أفغانستان بالاتحاد السوفييتي ،

كما قاموا بمسح جوي لأراضي أفغانستان الشمالية ، ودربوا ضباط الجيش ، وبلغ عدد الضباط الأفغان الذين تدربوا في الاتحاد السوفييتي [7000 ضابطاً] وكان عدد الذين تدربوا في الولايات المتحدة لا يزيد على [100] ، وكانت اللغة التقنية المعمول بها في وحدات الجيش الأفغاني هي اللغة الروسية بسبب اعتماده الكلي على موسكو.
وقصارى القول: فأطماع الشيوعيين السوفييت في أفغانستان لم تبدأ في عام 1979م كما يظن البعض ، وإنما بدأت محاولاتهم منذ بداية قيام الثورة البلشفية في روسيا ، وأول معاهدة بين البلدين كانت في عام 1921م، وكانت هذه المعاهدة أول ثمرة لمحاولاتهم التي لم تنقطع.
ومن جهة أخرى:فهذا أول غزو للجيش السوفييتي خارج حلف وارسو (1)... ومن أجل إنجاح مهمتهم رصدوا أرقاماً مذهلة من المال والعتاد ، وخسروا أكثر من [50000] عسكرياً... والذي نعتقده : بأن السوفييت يحبون أن يخرجوا من أفغانستان ، ولكنهم لا يوافقون على تسليم أفغانستان للمجاهدين المسلمين ، كما أنهم لا يقبلون التخلي عن هيمنة الحزب الشيوعي الأفغاني ، وتقديم كل عون ومساعدة عند الضرورة. إنهم لا يقبلون هذا ولا ذاك للأسباب التالية:
1- إذا خسر الاتحاد السوفييتي معركة أفغانستان فإن سمعته في العالم الشيوعي سوف تنهار ، لاسيما وأن أفغانستان دولة مجاورة للسوفييت.
2- هزيمة السوفييت ، وقيام نظام إسلامي في أفغانستان يعني أن ثورة أخرى سوف تبدأ في الجمهوريات الإسلامية جنوب الاتحاد السوفييتي ، وهذا يعني -كما قلنا سابقاً- انهيار الإمبراطورية السوفييتية كلها.
3- هزيمة السوفييت تعني خسارة القاعدة العسكرية "شاندان" القريبة من إيران ، وهي قاعدة استراتيجية ضخمة يمكنها أن تغطي منطقة إيران والخليج ، والسوفييت يحاولون الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج ، ولهم قواعد جوية وبحرية كثيرة حول العالم في: أثيوبيا ، وموزمبيق ، وفيتنام ، واليمن الجنوبي ، وسورية ، ولهم أعداد كبيرة من السفن والطائرات في المحيط الهندي وقريباً من الخليج ، حيث يحتفظون قرب الخليج بحوالي 83 سفينة حاملة طائرات لكل منها 70 طائرة ، والاحتفاظ بقاعدة "شاندان" العسكرية يجعل خطوط الإمدادات داخلية وليست خارجية ، وليس من العسير تدميرها.
4- الحرب المتوقعة في المستقبل ستكون بين السوفييت والصين -والله أعلم- ، وكلاهما يستعد لها ، ولقد أكمل السوفييت حصارهم للصين من جميع الجهات في كمبوديا ولاوس وفيتنام. وأسطولهم قادر على قطع أي إمداد بحري للصين ، الممر الوحيد المتبقي لإمداد الصين هو طريق " كاراكم" الذي يربط الصين عبر باكستان إلى بحر العرب والمحيط الهندي ، ومنه تأتي إمدادات النفط وغيرها.
واحتلال السوفييت لممر "واخان" يضع هذا الطريق تحت تهديدهم المباشر.

ومن جهة أخرى: فإن الاستيلاء على ممر "واخان" يجعل حدود الاتحاد السوفييتي مشتركة مع حدود باكستان ، وبالتالي يضع باكستان تحت التهديد السوفييتي إذا حاولت التدخل ضد كابل أو مساعدة خصوم النظام.
ومن جهة ثالثة: ففي حالة وقوع حرب مع الصين تندفع القوات السوفييتية عبر ممر "واخان" لتصل إلى أراضي حلفائها في الهند ، فتنفصل باكستان عن الصين ، وتنقطع الإمدادات عبر طريق "كاراكوم" ، ولهذه الأسباب فإن السوفييت يرغبون في الانسحاب من أفغانستان ، مع الإبقاء على قاعدة عسكرية في "شاندان" وعلى ممر "واخان" إلى الأبد ، ويحرصون على وجود حكومة تدور في فلكهم تماماً ، ولا يشترطون أن تكون عناصر تلك الحكومة ماركسية ، بل إنهم لا يمانعون في انضمام عناصر قومية إلى الحكومة ، وكذلك لا مانع لديهم من عودة الملك السابق ظاهر شاه ، أو مشاركة عناصر ذات صبغة إسلامية ، ولكنهم يعارضون أشد المعارضة تمثيل المجاهدين ، لاسيما إن كان لهم شأن في صنع القرار ، وقد أفصحوا عن معظم أهدافهم وغاياتهم من خلال التصريحات الرسمية التي صدرت عنهم .

رابعاً : أهدافهم من وراء هذه المبادرة :

1- إن غورباتشوف رجل مخابرات ، فهو الذي كان مسؤولاً عن جهاز المخابرات السوفياتية "كي . جي . بي" فأساليبه تختلف عن أساليب العسكريين وطريقة تفكيرهم ، ولهذا فقد اختار زعيماً جديداً للنظام الأفغاني وهو المدعو "نجيب الله" الذي تدرب على أيدي [كي . جي . بي] وتولى مسؤولية ما يسمى بإصلاح جهاز مخابرات أمن الدولة "خاد"، وخلال توليه مسؤولية هذا الجهاز أثبت كفاءة - من وجهة نظر السوفييت-حتى أنه اكتسب لقب "دكتور الموت" أو "دكتور الرعب" وهو الاسم الذي يطلقه عليه المجاهدون الأفغان.
وطبيعة هذه المرحلة لا تعتمد على القوة وحدها، وإنما تعتمد على الدهاء، والغدر، والمناورات ، والتجسس .
2- ينتمي "دكتور الرعب" إلى إقليم "بوشتانستان" وهو من قبائل "البشتو" - بكتيا- المجاورة لباكستان والذي يمر من خلاله 70% من قوافل المجاهدين ، وبعد توليه الحكم زار "بكتيا" وعقد لقاء قبلياً في معقل "الباشتون" ضم حوالي [5000] شخصاً ، وأعلن خلال اللقاء عن تمسكه بالإسلام ، كما أعلن عن عزم الحكومة على تطوير المنطقة ، وهذا يعني أن الاختيار قد وقع عليه ليقود معركة وطنية ضد باكستان بقصد توحيد "البوشتون"(2).
3- تكثيف جهاز المخابرات الأفغاني "خاد" لعمليات التخريب داخل باكستان وإثارة الفتن والقلاقل بين المهاجرين الأفغان والمواطنين الباكستانيين ، وتحريك المعارضة ضد النظام الباكستاني.

وقد تحركت المعارضة، ففي باكستان (14) حزباً سياسياً، منها (11) حزباً ضد المجاهدين الأفــغــان، ونـجـح الـنـظـام الأفغاني في تنظيم عدة انفجارات داخل باكستان، من أهمها الانفجار الذي حدث في مخيم للاجئين الأفغان الذي وقع بالقرب من مدرسة باكستانية ، وأدى هذا الانفجار إلى انهيار المدرسة ومقتل حوالي (50) طالباً ، وأثر هذا الانفجار نظم الشيوعيون وعملاؤهم مظاهرات استمرت ثلاثة أيام ، وقد تم خلالها منع المهاجرين الأفغان من النزول إلى مدينة "بيشاور" والتجول بالشوارع ، وقام المتظاهرون بحرق ثلاث سيارات للأفغان.. وبعد أيام أطلق على مطار "بيشاور" أربعة صواريخ أرضية صغيرة لم ينتج عنها خسائر.
4- ومع الحديث عن المبادرة السلمية ، فلقد كانت القرى الباكستانية والمخيمات الأفغانية هدفاً لغارات جوية قامت بها الطائرات السوفييتية ، ومن أعنف هذه الغارات: ما نفذته الطائرات السوفييتية في النصف الأول من الشهر الثالث من هذا العام ، حيث شاركت فيها ولأول مرة حوالي تسع عشرة طائرة وعلى دفعتين متلاحقتين ، وأدت هذه الغارات إلى تدمير عشرات المنازل والمتاجر ، وتقول السلطات الباكستانية: إنها سجلت أكثر من [900] انتهاكاً للأجواء الباكستانية ، وكان ضحايا هذه الغارات أكثر من [150] قتيلاً ، والغريب أن هذه الغارات جرت بينما كان الوفدان الباكستاني والأفغاني في جنيف لمناقشة ما يسمى بالمبادرة السلمية(3).
5- وقع الاختيار على [الحاج محمد تشمكني] ، ليكون رئيساً للدولة ، وهو من مواليد قرية [تشمكني] في محافظة [بكتيا] ، ووالده زعيم قبلي في المنطقة ، ويكررون في إذاعة كابل لفظ "الحاج" لجذب عواطف "العامة" وإشعارهم بأن الرئيس الأفغاني ليس شيوعياً ، وحقيقة الأمر أن الحاج محمد انتهازي وصديق لهم ، والحكم كله بيد نجيب الله ، وأمثال هذه العناصر أشد خطراً على المسلمين من قادة الحزب الشيوعي الأفغاني.
6- يـسـعـى نجيب الله كما يسعى غورباتشوف لامتصاص النقمة العالمية على الشيوعيين بسبب غزوهم لأفغانستان ، وبشكل أخص يحاولون امتصاص النقمة العالمية لدى دول عدم الانحياز ، ولدى الدول التي تدين شعوبها بالإسلام.
7- يعمل الشيوعيون من أجل قيام حكومة ائتلافية تضم شخصيات معارضة ، وهذه الحكومة إذا قامت لا تتعارض مع مخططاتهم المرسومة ، لأن الجيش يبقى مؤسسة شيوعية ، وتبقى الخطوط مفتوحة بينهم وبين قيادتهم في موسكو.
وهـدفـهـم من طـرح هـذه الـفـكـرة: ضرب ما تبقى من وحدة المجاهدين ، والمتمرسون في المـخـابـرات يـعـرفـون كـيـف يتسـللـون إلى ضعاف النفوس من المحسوبين على الجهاد ، ويعلمون بأن هناك ثلاث مـنـظـمـات سـوف تقبل المبادرة إذا قبلها الملك وقبلتها الولايات المتحدة الأميركية

وحكومة باكستان... وستحاط هذه الحكومة بضجيج إعلامي عالمي، وسوف يحاولون عزل المجاهدين الذين لا يقبلون الاشتراك بهذه الحكومة التي سيكون من أخطر أهدافها القضاء على جهادهم ، ومصير هذه الحكومة لن يكون أفضل من مصير الحكومات التي شكلها حليفهم الهالك محمد داود.

8- يحرص السوفييت على تطوير المفاوضات مع باكستان والولايات المتحدة الأميركية ، والوصول إلى حل متفق عليه للمشكلة الأفغانية ، وإذا كانت المبادرة مرفوضة عند باكستان وحلفائها ، فإن المفاوضات تحرز شيئاً من التقدم ، وما تقبله باكستان لإنهاء الحرب لا تقبله بالتأكيد المنظمات الجهادية التي نثق بها... ويقول الشيوعيون: إذا وصلنا إلى اتفاق مع باكستان وحلفائها فلن نخشى المنظمات الجهادية إذا تخلت عنها باكستان.

9- لن يتخلى الشيوعيون عن العمل العسكري في أفغانستان ، ولهذا فهم يحرصون على بقاء الجيش بأيديهم ، كما يحرصون على بقاء القاعدة العسكرية في "شاندان".

ومن جهة أخرى: فقد كثف الشيوعيون هجماتهم على مخيمات الأفغان ، واستخدموا كافة الأسلحة ، وكان هذا الهجوم بعد المبادرة ، بل وأثناء مفاوضات جنيف.

خامساً: موقف المجاهدين من المبادرة:

أدرك المجاهدون الأهداف والغايات التي يتطلع إليها الشيوعيون من وراء طرحهم لهذه المبادرة ، وتنادى قادة الائتلاف إلى اجتماع حاشد حضره أكثر من [150000 مجاهداً] من كافة الاتجاهات ، تحدث فيه كل من: محمد يونس خالص ، عبد رب الرسول سياف ، صبغة الله مجددي ، برهان الدين رباني ، محمد نبي محمدي ، أحمد الجيلاني ، حكمت يار.. وفي نهاية الحفل ألقى محمد نبي محمدي رئيس الائتلاف بياناً باسم كافة أطراف الائتلاف جاء فيه: »إن شعبنا المجاهد لن ينخدع ، وسوف يواصل جهاده المقدس السامي بكل يقظة حتى الوصول إلى غايتنا النبيلة ، ولو وجد من يقبل وقف إطلاق النار المعلن من قبل نجيب العميل ، وصفق لما يسمى بالمصالحة الوطنية ، وسقط في شراك العدو الغادر ، والتحق بالحكومة العميلة ، فإنه ليس إلا من العناصر المتصلة بمخابرات روسيا [كي. جي. بي] وفرعها منظمة الخاد في الحقيقة ، وكان قد تسرب إلى صفوف الجهاد متغطياً بغطاء الإسلام والجهاد«(4).

».. إن الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان الممثل الوحيد لغايات ومرامي شعبنا المجاهد المسلم ، يعلن بصراحة ما فوقها صراحة: أن نغمة وقف إطلاق النار والمصالحة الوطنية وإقامة حكومة ائتلافية تضم الشيوعيين والمجاهدين ، التي يعزف الشياطين الروس على أوتارها وعلى لسان عميلهم نجيب ؛ ليست

إلا واحدة من احتيالات العدو التي لا تعد ولا تحصى ، ولن تخدع مجاهدينا الأبطال إن شاء الله«.
واستطرد البيان في الرد على أكاذيب الشيوعيين ، وفي فضح مقاصدهم ، وفي الختام أصدروا القرارات التالية:
1- إننا في حين نطالب بالانسحاب الفوري وغير المشروط والكامل للقوات الروسية ، لا نعرف طريقاً آخر لاسترجاع الحرية وطرد القوات الروسية من بلادنا وإقامة حكومة إسلامية فيها غير استمرار المقاومة المسلحة.
2- سوف تتقلد حكومة المجاهدين المؤقتة زمام الأمور في البلاد بعد انسحاب القوات الروسية وسقوط النظام العميل.
3- سوف تقام انتخابات حرة تحت إشراف هذه الحكومة المؤقتة ، وتنجم الانتخابات عن تشكيل شورى وحكومة إسلامية منتخبة.
4- تم الاتفاق على تشكيل لجنة لوضع دستور الحكومة المؤقتة وكيفية تأسيسها وتجديد قدراتها ووظائفها، وسوف ترفع هذه اللجنة خطواتها العملية في غرة فبراير من هذا العام، وتكمل اقتراحاتها خلال شهر واحد ، وتقدم إلى مجلس الشورى الحالي للاتحاد للمناقشة والإقرار.
5- تم الاتفاق على تشكيل لجنة قضائية ذات قدرة وصلاحية لتناقش المنازعات الموجودة في صفوف المجاهدين ، وتضع خططاً عملية لإزالتها ، وتصدر فتاوى شرعية بهذا الخصوص. ويجب تطبيق قرارات هذه اللجنة على كل الأفراد والمجاهدين.
6- سوف يتلو تشكيل الشورى المنتخبة وضع دستور البلاد والمصادقة عليه ، والدستور هذا يكفل تطبيق الشريعة الإسلامية في كل مجالات حياة شعبنا الفردية منها والاجتماعية تطبيقاً كاملاً . ومن الله التوفيق.

وفي تجمع كبير قال الأستاذ سياف:

»واسمعوا: إننا لن نجلس على طاولة المفاوضات مع الذين خدموا الروس وساعدوهم في عدوانهم السافر على أفغانستان ، وقتل إخوانهم وإراقة دمائهم... وإن الائتلاف مع الشيوعيين أو المتغربين [يعني: محمد ظاهر شاه ، وبطانته ، ومن سار على نهجهم] بمنزلة بيع دماء الشهداء وإضاعتها.. وإن المتغربين من الأفغان الذين يستوطنون في الدول الغربية يحلمون بحكم أفغانستان ، لكن -وبمشيئة الله- سوف يأخذون أحلامهم هذه إلى قبورهم« (5).

وقال الأستاذ حكمتيار (6):

»إن الجهاد الإسلامي هو الآن في أخطر مراحل أقداره ، ويقتضي منا كل الاحتياط والكياسة في خطوات عملنا وسياستنا ، علينا أن ننتبه إلى مؤامرات العدو الماكر في بداية الطريق ، وأن نتصدى للآمال الكاذبة والتوقعات الخادعة المضلة التي ليست أكثر من سراب والتي يزرعها العدو. وعلينا أن

نلفت الشعب إلى خطورة هذه المناورات السياسية حتى لا تتطرق عقلية الانعطاف والمداهنة إلى صفوف الشعب.. حتى لا نخسر المعركة التي كسبناها خلال حرب [152 شهراً] ، وقدمنا فيها تضحيات ليس لها نظير في التاريخ.
وانطلاقاً من تلك الدروس والتجارب التاريخية فإننا سنصر على مواصلة الحرب حتى اللحظة التي تترك فيها قوات العدوان بلدنا وترفرف راية الإسلام على ربوع البلاد«.
وقال في نهاية محاضرته:
»إن حربنا ستستمر وسنواصل دون توقف أو تأخير حتى يخرج آخر جندي روسي من بلدنا.. وإننا لنثق بأن استمرار الجهاد المسلح سيرغم في نهاية الأمر قوات العدوان على ترك بلادنا دون قيد أو شرط«.

سادساً: أين مواطن الخلل؟:

لقد صدرت تصريحات عن جميع قادة المجاهدين تبشر بالخير ، سواء منهم الذين يعملون داخل الائتلاف أو خارجه ، ولا غرابة في ذلك فلقد عرفوا الشيوعية والشيوعيين عن كثب ، والمثل العربي القديم يقول: »أهل مكة أدرى بشعابها« ، ورغم التصريحات والمواقف الجيدة التي وقفوها ، هناك ثغرات يعرفها العدو تمام المعرفة ، ويحاول التسلل لنسف ما تبقى من وحدة المجاهدين من خلالها ، وسوف نشير فيما يلي إلى أهم مواطن الخلل:

1- الباطنيون الرافضة:

يعلم المجاهدون جميعا أن دور الباطنيين من الجهاد ومنذ البداية كان سلبياً ، ويعلمون أيضاً أن هناك بعض التفاهم بين طهران وموسكو، ويقال: إن رئيس الوزراء الأفغاني منهم، ويحدثنا القادمون من الجبهات أن المرور من مناطقهم مغامرة يحسب لها المجاهدون ألف حساب ... ومع أن المجاهدين يعلمون هذه الأمور كلها فقد عرض عليهم أربعة عناصر في مـجـلـس الـشـورى، ورفضوا هذا العرض لأنهم يريدون نصف عدد المجلس ونصف عدد أعضاء الوزارة مع أن عددهم في أفغانستان لا يتجاوز [1.5مليون] ، وكعادتهم ينكرون ذلك ويزعمون أن عددهم سبعة ملايين ونسبتهم 35%!! وبدأت طهران تناور من جهتها ، واتصلت بالسوفييت وطرحت عليهم مبادرتها ، وهذه المناورة هدفها تحقيق مكاسب مهمة لهم في أفغانستان بعد انسحاب الروس.
ومع تقديرنا لوجهة نظر إخواننا المجاهدين نقول:
لا تظنوا أن اشتراكهم معكم في مجلس الشورى ومجلس الوزراء سوف يساعد على وجود هدنة بينكم وبينهم ، إنهم إن قبلوا بهذا الاشتراك فسيكون - أي الاشتراك بحد ذاته- ميداناً جديداً من ميادين صراعهم معكم ، فأنتم في نظرهم كفار ناصبة ، وليس بينهم من يعتقد بأننا مسلمون عصاة على الأقل ، وسوف يتعاونون مع السوفييت والأمريكان واليهود ضدكم ، وسوف

يستخدمون تقيتهم لذر الرماد في العيون ، وسوف يجعلون من أفغانستان "لبناناً" آخر بل أشد من لبنان لأن أفغانستان مجاورة للبلد الذي تحكمه قيادتهم في العالم..ومن المؤسف أن الذين يعرضون مثل هذا الرأي هم الذين يستبعدون منظمات وهيئات طيبة ولا يقبلون أن يكون لها دور في مجلس الشورى وغيره من المجالس الأخرى... فخذوا حذركم يا أخوة ، وصراعكم مع هؤلاء الغلاة لن يكون أقل من صراعكم المرير مع الشيوعيين ، ونحن نعلم أن كثيراً منكم سوف يستغربون ما نقوله عنهم ، ولمثل هؤلاء نقول: لا تحكموا عليهم من خلال ظاهر أحوال من تعرفون منهم ، ولكن احكموا عليهم من خلال عقائدهم ، وتاريخهم ، ومواقفهم من أهل السنة.. واعلموا حق العلم أنهم لم ولن يقبلوا أن يقوم للمسلمين السنة دولة في أفغانستان ، ولا نشك أنكم سوف تخوضون معركة معهم ، وسوف يفرضون عليكم هذه المعركة فرضاً والله أعلم ، وسوف يجدون من يتعاون معهم من ضعاف النفوس وطلاب الزعامات وبعض أصحاب الاتجاهات الباطنية فانظروا ماذا تفعلون.

2- مجددي وجيلاني:

قال الإخوة المجاهدون الذين نثق بهم:
لـهـذيـن الـرجـلـيـن صـلات وثـيـقـة مع الدوائر الغربية، ولهما صلات قوية مع ظاهر شاه ويـنـسـقـان معه .. وقـالوا أيضاً: لا نقبل بحال من الأحوال أن يضمنا وإياهم اتحاد واحد للأسباب السابقة ولأسباب أخرى ليس هذا هو موضع الحديث عنها ، ومن خلال متابعة سيرة الرجلين تأكد عندنا صحة ما يقوله إخواننا قادة المجاهدين.. وبعد حين من الزمن تغير شكل الاتحاد فخرج منه ناس ودخله آخرون وأصبح إخواننا الذين نثق بهم ، ومجددي وجيلاني في اتحاد واحد ، وقالوا في تبرير موقفهم لقد أرغمنا على اتخاذ هذا الموقف!!.
وإذاً فلقد أصبح المستحيل ممكناً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ونسأل الله أن لا يتكرر مثل هذا الإرغام في مواقف أشد خطورة من هذا الموقف!!.
وقبل بضعة أشهر قام مجددي وجيلاني ورباني ومحمد نبي بزيارة الولايات المتحدة الأميركية ، وعقدوا لقاءً مع الرئيس الأمريكي ريغان ، وقاموا بزيارة عدد من العواصم الغربية ، وعقد [مجددي] مؤتمراً صحفياً ، كما ألقى كلمة في احتفال عقده أنصاره مما قاله:
»والـتـقـيـنا أيـضـاً برئيس بلدية باريس نيابة عن رئيس الجمهورية ، وجلسنا معاً في غرفة واحـدة حـيـث ألـقـى كـلـمـة وألـقـيت كلمة، ثم قال بعد انتهاء الكلمتين: إن هذه الغرفة مـخـصـصـة لـلـقـاء المسؤولين الحكوميين، وهانحن نلتقي بكم هنا للارتقاء بجهادكم.. وإن الحكومة الفرنسية تساندكم في جهادكم كما قلنا سابقاً«.

وقال: »وفي أمـريـكـا فـقـد اسـتـقـبلـنا هناك بحفاوة بالغة حيث رافقتنا الحماية من الشرطة المزودين بأجهزة اللاسلكي للاتصال فيما بينهم، وأحـضــروا لـنا سيارتين كبيرتين يستقـبل بـهـمـا رؤسـاء الحـكـومـات، وبـدأنا المـفـاوضـات وطرحنا مشاكلنا وشرحنا حقيقة مأساتنا وأبعادها السياسية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وأبدينا ملاحظاتنا حول حاجة جهادنا إلى المعونة ، وأعلن الأمريكيون استعدادهم لدعم جهادنا وإسناده.. وأؤكد أن هذه الزيارة ليست ضد الشرع... والمساعدات المالية التي نطلبها ليس فيها أو في طلبها ما يخالف الشرع ، وقد أجيز لنا شرعاً أن نطلب ذلك«.
وعن السوفييت قال: »إن الروس عندهم الآن من القوة والعتاد مالا نستطيع مقاومته وجدنا إلا بالاستعانة بالغير ، وقد طلبنا الاستعانة بالكفرة وهذا أمر جائز شرعاً حسب المذهب الحنفي«.
وأوضح قناعته بالحل السياسي فقال: يقول الله تبارك وتعالى: ((وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)) ونحن أمامنا عدو قوي فلماذا لا نكف عن سفك الدماء ونرضى بالصلح إذا كان فيه صالحنا وتحرير أرضنا. والمحادثات في جنيف هي من أجل الصلح ووضع حد للقتال بين المجاهدين وعدوهم«.
هذه أقوال مجددي كما جاءت في مؤتمره الذي عقده بتاريخ 8/7/1986 ونتركها دون تعليق ؛ لأن أقواله كانت صريحة... وندد الأستاذ سياف والمهندس حكمتيار بهذه الزيارة في تصريحات صدرت عنهما ، وتوترت الأجواء بين الطرفين... ومرت أيام أخر ، ويعلن عدو الله وسادته في الكرملين عن مبادرتهم ، ويتنادى قادة الائتلاف إلى اجتماع حاشد ، ويتفقون على موقف موحد ، وكان من بينهم مجددي وجيلاني ، ويتقدم محمد نبي ليتلو البيان الموحد على المجتمعين ، وتتحسن الأحوال بين الطرفين.. وأصبحنا نسمع من يقول: لقد كنا نجهل حقيقة مجددي ، وعندما عرفناه عن كثب عرفنا فيه الصدق والخير وأكد لنا أنه ليس صوفياً ، وليس له علاقات مشبوهة!!.
وتمر الأيام مرة أخرى ويصرح جيلاني بأنه يرحب بعودة محمد ظاهر شاه ، وجاء بعده محمد نبي ليدلي بتصريح مماثل ... أما مجددي فقال: أنا أريد حكومة يرأسها رجل اسمه "محمد ظاهر شاه" ، وقال محمد نبي محمدي: إن ظاهر شاه رجل كبير ويعرف كيف تدار الأمور ، وفضلاً عن هذا فهو من أهل الخبرة ومقبول عند الأفغان ويرحبون بعودته ، وقيل لجيلاني: ما تقوله يتناقض مع بيانكم الذي ألقاه السياف في مؤتمر القمة الإسلامي؟ ، فأجاب: ما قاله سياف في المؤتمر يمثله شخصياً ولا يمثلنا ... ومما يجدر ذكره أن مثل هذه التصريحات نشرتها الصحف ، وبعضها نشر في لندن ، وتنادى قادة الائتلاف إلى اجتماع واتفقوا على موقف موحد من أجل وضع حد للإشاعات التي بدأت تنتشر في صفوف المجاهدين.
إن جيلاني ومجددي وحلفاءهم كانوا ومنذ البداية يرون التعاون مع الولايات المتحدة الأميركية وبقية دول أوروبا الغربية ، كما أنهم يرون وجوب التعاون مع

محمد ظاهر شاه وأعوانه... وكانت الولايات المتحدة مهتمة بالمقاومة المسلحة ضد السوفييت والشيوعيين الأفغان ، وكانت تنطلق في موقفها هذا من مصالحها الخاصة التي تتعارض في النهاية مع أهداف المجاهدين الأفغان ، وكان طريق المقاومة المسلحة يمر بالتحديد من [سياف وحكمتيار] ، ولهذا طرحوا -أي: مجددي وجيلاني- وجوب ائتلاف المجاهدين وفرض سادتهم الائتلاف فرضاً ، كما أخبرنا بذلك إخواننا المجاهدون.
وعندما طرح الشيوعيون مبادرتهم كان موقف الولايات المتحدة منها سلبياً ، وكانوا يشككون بنوايات السوفييت ، ومن جهة أخرى كانوا يريدون مزيداً من الضغط على السوفييت ، وهذا يقتضي التهديد باستمرار المقاومة ، وعندما يتنازل الشيوعيون عن بعض شروطهم القاسية ، ويتفقون مع الأمريكان سيخرج علينا مجددي ليذكرنا ، بقوله تعالى: ((وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)) ، وليقول أيضاً:» فلماذا لا نكف عن سفك الدماء ونرضى بالصلح إذا كان فيه صالحنا وتحرير أرضنا«.
وقد قال هذا وذاك بعد زيارته للولايات المتحدة ، وأعداء الله في كابل وموسكو يعرفون هذه المسألة ، ولهذا فقد قالت إذاعة كابل بعد طرح المبادرة بأيام: »إن أربعة من زعماء المعارضة قبلوا مبادرة نجيب الله، وكانوا على وشك التوجه إلى كابل قبل أن تتدخل باكستان وتطلب منهم التريث«.
أرأيتم -إخواننا- الخطأ الفادح الذي يرتكبه الدعاة والقادة في تقويم الرجال؟!.
أرأيتم كيف تمر بنا حالات فتطغى العواطف على العقول فننسى الماضي ، ونسوغ لأنفسنا الأعذار ولو كانت مضطربة متناقضة؟!
أرأيتم كيف لا نستفيد من أخطاء إخوان لنا ، ونتصرف من حيث بدأ غيرنا؟!
قد تضطرون إلى مهادنة مجددي وجيلاني وغيرهما ، ولكم أن تتخذوا مثل هذا الموقف ، ولكن ادرسوا الأمر من كافة جوانبه ، وإياكم والمبالغة في حسن الظن ، وانظروا ماذا تفعلون عندما ينضم مجددي وجيلاني لركب محمد ظاهر شاه والولايات المتحدة الأميركية؟.

3- الموقف الدولي:

بعد يومين من إعلان نجيب عن مبادرته ، قام وزير الخارجية السوفييتية [ادوارد شيفارد نادزة] ، ومستشار الكرملين للشؤون السياسية الخارجية [اناتولي دوبرينين] بزيارة كابل ، وكررت وكالة [نوفستي] السوفييتية القول: »إن الهدف الحالي الذي تسعى له الحكومة السوفييتية هو: تحقيق مصالحة وطنية«.
وفي 20/1/1987:قام النائب الأول لوزير الخارجية السوفييتية [اناتولي كوفاليف] بزيارة إسلام آباد وسلم الرئيس الباكستاني رسالة من نظيره السوفييتي ، وتزامنت زيارة [كوفاليف] مع زيارة وكيل وزارة الخارجية الأميركية [مايكل أورماكوست] لإسلام آباد ، وعقد اجتماعاً مع رئيس الوزراء

محمد خان جونيجو ووزير الخارجية يعقوب خان... ووصف [ارماكوست] المحادثات التي أجراها مع الزعماء الباكستانيين بشأن أفغانستان بأنها "ممتازة" ، وأكد مساندة واشنطن للأفغان من أجل انسحاب القوات السوفييتية من بلادهم ، وأشار أرماكوست في تصريح أدلى به قبل مغادرته إسلام آباد في ختام زيارة لباكستان استغرقت يومين إلى أنه يشعر بالارتياح التام للمشاورات التي أجراها مع المسؤولين الباكستانيين والمتعلقة بصفة خاصة بالاقتراحات الأخيرة لموسكو ونظام كابل ، من أجل وضع حد للنزاع الأفغاني ، وأشار أرماكوست إلى أن ما يهم هو انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان.
وقال أرماكوست: لقد ساندنا دائماً كفاح الشعب الأفغاني العادل من أجل رحيل القوات الأجنبية ، وذكر أن الولايات المتحدة تأمل في التوصل إلى تسوية سلمية تلبي رغبة الشعب الأفغاني.
واستؤنفت مفاوضات جنيف بعد المبادرة ، وهذه المفاوضات بدأت منذ عام 1982 بين باكستان والحكومة الأفغانية ، وتتم بشكل غير مباشر تحت إشراف الأمم المتحدة ، وكان هناك ثلاثة اقتراحات بعد المبادرة:
-اقتراح قدمه الشيوعيون ويقتضي قيام حكومة ائتلافية بين المجاهدين والحزب الشيوعي ، وتكون هذه الحكومة تحت سيطرة نجيب ، وإذا قامت مثل هذه الحكومة فإن الروس ينسحبون بسرعة ، وقد رفض الوفد الباكستاني هذا الاقتراح.
-واقتراح الوفد الباكستاني: أن ينسحب الروس حسب جدول زمني محدد ، وتشكل حكومة غير منحازة وتكون مقبولة من قبل المجاهدين والشيوعيين ، وبعد انسحاب الروس تسقط هذه الحكومة ، وتجرى انتخابات..
-وطرح مندوب الأمم المتحدة اقتراحاً يجمع بين الاقتراحين السابقين ، وبقيت المدة الزمنية المختلف عليها سنة واحدة ، يطلبها السوفييت زيادة على المدة التي حددها الوفد الباكستاني.
ثم تكرر الحديث على وجوب تشكيل حكومة غير منحازة يرضاها الشعب الأفغاني [انظر تصريحات رئيس الوزراء الباكستاني في زيارته للندن في 5/4/1987] ، أما الولايات المتحدة الأميركية والدوائر الغربية: فيصرحون أحياناً بوجوب اشتراك محمد ظاهر شاه ، أو رئيس الوزراء السابق [محمد يوسف الذي يقيم في ألمانيا].
ومن أجل الوصول إلى مزيد من الوضوح ، فقد سأل أحد قادة المجاهدين الأفغان مسؤولاً كبيراً في الحكومة الباكستانية قائلاً له: هل تكون مساعدتكم لنا حتى يخرج الروس من أفغانستان ، أم حتى يقوم نظام إسلامي في أفغانستان؟ فأجاب المسؤول: نحن معكم إلى أن يخرج الروس من بلدكم... وعلق الأخ المجاهد قائلاً: لا يريدون أن يقوم نظام إسلامي صحيح في أفغانستان ، لأنهم يخشون أن يقوم مثل هذا النظام في بلدهم... أما مطالبتهم

بحكومة غير منحازة فأمر يدعو إلى العجب ، وهل هناك مسؤول غير منحاز؟!.
لا نعتقد ذلك ، فقد يكون منحازاً إلى الإسلام ، أو إلى الشيوعية ، أو إلى الولايات المتحدة الأميركية.
وإذا علمنا بأن الولايات المتحدة الأميركية أخبث دول العالم ، ولمخابراتها دور واسع في حرب الإسلام والمسلمين منذ أكثر من نصف قرن ، وهي التي صنعت زعامات كثير من الطواغيت الذين وجهوا أشرس الضربات لطلائع البعث الإسلامي.. إذا علمنا هذا فقد أصبح واضحاً عندنا: لماذا يطالبون بحكومة غير منحازة، أو على حد قولهم:محايدة. وأصبح واضحاً عندنا الأخبار المشوهة التي تنشرها أجهزة الإعلام الغربية عن المجاهدين.
وليست هذه المرة الأولى التي يتفق فيها الروس مع الأمريكان ضد الدعاة المجاهدين الذين يقاتلون من أجل أن يكون الدين كله لله في الأرض.

4- التكتيك الشيوعي:

يتحالف الشيوعيون والعلمانيون -من دعاة التغريب- في معظم بلدان العالم الإسلامي ضد العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية ، ويستغرب السذج قولنا هذا ، واستغراب هؤلاء الناس ليس شيئاً مهماً ، فهناك رابط يجمع الطرفين ويوحد بينهما إلى حين من الزمن.. هذا الرابط هو العلمانية وعداوة الدين الإسلامي ، وشعور كل طرف بأنه عاجز عن المضي في هذه المعركة إن لم يكن له حليف قوي ، ويظهر هذا التحالف داخل البلد على أنه تحالف بين حزبين أو أحزاب تقدميه وطنية ، ويرفعون شعارات براقة: كالحرية ، والوحدة ، والاستقلال ، ومكافحة الجهل والتخلف... أما في حقيقته فهو تحالف بين الغرب الصليبي والشرق الشيوعي ويمثله نيابة عنهم شخصيات وأحزاب مناضلة -على حد قولهم- ، وينشط الطرفان في جذب ضعاف النفوس من المنسوبين إلى العلم والدين ، ومن طبيعة هؤلاء التقرب إلى الحكام والتزلف إليهم ، وربما كان بينهم من يجهل حقيقة هؤلاء الزعماء ويسقط في شراكهم بسبب جهله وغفلته ، وإذا كانت النوايا لا يعرفها إلا علام الغيوب فنستطيع التأكيد بأن ضعاف النفوس من هؤلاء العلماء يطعنون العمل الإسلامي طعنات موجعة ، سواء كانوا يدرون أو لا يدرون... وننتقل فيما يلي من التعميم إلى التخصيص وضرب الأمثلة والشواهد:
ففي أفغانستان:قدم محمد ظاهر شاه خدمات للشيوعيين لا تنسى ، ولعب دوراً مأساوياً في حرب الإسلام والمسلمين ، أما حليفهم التاريخي فكان محمد داود ابن عم محمد ظاهر شاه ورئيس وزرائه ، وقائد الانقلاب العسكري الذي أطاح بابن عمه ونظامه الملكي ، وكانت العلمانية وعداوة الإسلام الأساس الذي قام عليه تحالف محمد ظاهر شاه أو رئيس وزرائه مع الشيوعيين ، ومع ذلك فلكل طرف منهما أهداف وغايات تختلف عن أهداف وغايات الطرف الآخر ، فمحمد ظاهر شاه كان بحاجة إلى مساعدات وقروض

من الدولة العظمى -الجارة- ، كما أنه بحاجة إلى تنظيم قوي يتعاون معه في معركته ضد العلماء والدعاة ، ومحمد داود كذلك يشترك مع الملك في أهدافه ، وكان له هدف آخر ألا وهو: التعاون مع الشيوعيين والروس ضد خصومه السياسيين في البلاط الملكي ، ولولا الشيوعيون ما استطاع أن ينفذ الانقلاب العسكري الذي شارك فيه 300 ضابطاً ليس بينهم من غير الشيوعيين سوى عشرة ، وصحيح أنه أصبح رئيس دولة لكنه كان ورقة بيد الشيوعيين ، وعندما أراد أن يتحرر من هيمنتهم أطاحوا به وقتلوه شر قتلة.
أما الشيوعيون "فتكتيكهم" من أجل الوصول إلى الحكم معروف ، لقد كان تعاونهم مع محمد ظاهر شاه يمثل مرحلة في هذا الطريق ، وتعاونهم مع داود يمثل مرحلة أخرى لكنها أفضل عندهم من الانفراد في الحكم ، ولولا أن محمد داود شعر بخطرهم وأراد الإطاحة بهم لما انقلبوا عليه ، لأنهم يعرفون طبيعة الشعب الأفغاني المسلم ، وأنه لن يقبل أن يكونوا حكاماً له بشكل مباشر..
وعلى كل حال كان خبث محمد داود لا يقارن بخبث الشيوعيين ، وكانت حساباته معهم خاطئة ، وسهل عليهم تنحيته وقتله ، والشيوعيون ليس في قاموسهم شيء اسمه وفاء ومروءة وخلق!!
وهناك أمثلة كثيرة في البلاد العربية تشبه إلى حد كبير تحالف الشيوعيين ومحمد ظاهر شاه وداود في أفغانستان ، ففي السودان:تحالف الشيوعيون مع الأحزاب الوطنية والإسلامية عند الإطاحة "بعبود" ، لأنهم كما يزعمون ضد الانقلابات العسكرية ، ودعاة إلى الديمقراطية [مع أنهم ألد أعدائها] ، وبعد زمن يسير تعاونوا مع عدد من العسكريين ، وأطاحوا بالنظام الديمقراطي ، وبعد زمن يسير من قيام الانقلاب العسكري دبروا انقلاباً آخر ضد شركائهم في الحكم [جعفر نميري وبضعة من قطاع الطرق] ، ولأمرٍ أراده الله فشل انقلابهم ، وبطش بهم نميري وأعوانه.
وهناك أمثلة أخرى في العراق ومصر واليمن الجنوبي وسورية ، وتفضح هذه الأمثلة أساليب الشيوعيين ومخططاتهم ،ونعرض عن سردها والتعليق عليها لضيق المجال ، ولكن الصور تتكرر مع اختلاف في التطبيق والنتائج ، فيقابل داود عند الأفغان: عفلق ، وأكرم الحوراني ، ونميري ، وعبد الكريم قاسم ، وقحطان الشعبي ، وغيرهم وغيرهم عند العرب.
والشاهد من حديثنا عن "التكتيك الشيوعي" ، أنه لا يجوز أن نكرر أخطاء الماضي ، ويجب أن ننشط إعلامياً ودعوياً في كشف حقيقة الذين تحالفوا مع الشيوعيين ، وأنهم أخطر علينا من الشيوعيين ، فمحمد ظاهر شاه أخطر من الشيوعيين ؛ لأن أوراق الشيوعيين مكشوفة ، أما هو فلا يزال بين المسلمين من يحسن الظن به، ويطالب بعودته ، ومن شروط هذه العودة إقامة جبهة وطنية مع الشيوعيين وغيرهم من العلمانيين دعاة التغريب ، وإذا كان هناك نفر من العلماء يزعمون أنهم كانوا يجهلون هذه الحقائق ، ولهذا كانوا

يتعاونون مع محمد ظاهر شاه عندما كان على رأس الحكم ، فلماذا يطالبون بعودته الآن؟!.
فإن أصر هؤلاء على موقفهم الظالم ، فمن الواجب علينا بيان حقيقتهم وتحذير المسلمين من نفاقهم.

5- العالمية:

هناك صراع عالمي على أفغانستان:
فالجانب الأول في هذا الصراع يتزعمه السوفييت ، ويقف الشيوعيون: دولاً وأحزاباً وهيئات مع السوفييت ، والبداية كانت عندما رمى الاتحاد السوفييتي بثقله ، وأرسل جيشه ليقاتل مع الشيوعيين الأفغان في خندق واحد ، وبغض النظر عن أهداف السوفييت وأطماعهم ، وحسبنا أن نعلم بأن الشيوعيين السوفييت والأفغان يقاتلون سوية ، ولم يترك الشيوعيون في العالم إخوانهم وحدهم في الساحة ، مع أن السوفييت دولة عظمى ، فبلغاريا تزود الغزاة بالطعام ، وخبراء ألمانيا الشرقية يدربون الشرطة والمخابرات الأفغانية [خاد] ، وتشارك قوات رمزية من كوبا ، وخمسة آلاف جندي من دول حلف وارسو ، وقوات محدودة من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية اليسارية ، وتساهم الدول الشيوعية بـ 50% من نفقات الحرب والسوفييت بـ 50%.
وتتعاون الشيوعية العالمية وفق خطة جهنمية تستهدف عقائد المسلمين الأفغان وتصوراتهم ، فعدد الشيوعيين الأفغان عند بداية انقلابهم كان [5000] ، وخلال السنوات الست أصبح العدد [40000] ، وسبب تزايد العدد قوة برامجهم التعليمية للشباب داخل موسكو ، وتدرب خلال السنوات الأربع الماضية [100000] شاباً داخل الاتحاد السوفييتي ليكونوا الكوادر الشيوعية وإدارات الحكم.
وفي التاسع من نوفمبر لعام 1984 توجه [860] طفلاً أفغانياً من كابل إلى موسكو مباشرة بالطائرات ، وتتراوح أعمارهم ما بين [12 إلى 16 عاما] ، والهدف من وراء ذلك تخريج جيل جديد لا يعرف عن الإسلام شيئاً.
أما عن نشر الفساد فتقول مصادر المجاهدين بأن [كى. جي. بي] تدفع نصف ثمن حقن "الهيروين" لكي تجعلها في متناول أيدي الشباب في أفغانستان ويعيد الشيوعيون للأذهان موقفهم عند احتلالهم للولايات الإسلامية الواقعة جنوبي الاتحاد السوفييتي ، لقد وقفت هذه الولايات تحت قيادة [الإمام شامل] وقفة رجل واحد للذود عن دينها ؛ مما أكد للروس أن هزيمة هذا الجيل مستحيلة ، فأطالوا فترة الحرب ، واستخدموا الحرب النفسية ، وعندما كانت تعقد المعاهدات بين المسلمين والروس ، وكانوا يتبادلون الرهائن لضمان عدم اندلاع الحرب ، فكان المسلمون يطالبون بضباط الجيش كرهائن في حين كان الروس يطالبون بالأطفال ، وتعجب المسلمون فماذا يريد الروس من الأطفال ، ولكن تعجبهم لم يدم طويلاً لأن الأطفال كبروا

وعادوا ضباطاً يقاتلون آباءهم ، وكان أحد هؤلاء الضباط [جمال بن الإمام شامل] ابن القائد المسلم الذي فعل الأفاعيل في الروس، عاد جمال وأمثاله ليقاتلوا آباءهم ، ولهذا تحطمت معنويات المسلمين ودب بينهم اليأس ، فانهزموا وانتصر الشيوعيون. [اعتمدت في هذا على دراسات ودوريات للمجاهدين].

والجانب الآخر تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية ، ومعها الدول الغربية والهيئات والمؤسسات الصليبية، ولهم مخططات قد تكون أضعف من مخططات الشيوعيين في جوانب ، وأخبث منها في جوانب أخرى ، ويستغلون أعمال الخير كالطب والتعليم وغيرهما من أجل إفساد المسلمين ، وتنصيرهم ، أو تجنيدهم لمصلحة الغرب.

وإذا كانت هذه مخططات الأعداء ، فماذا أعددنا لها؟!.

- منذ بداية الجهاد وحتى يومنا هذا لم ينجح المجاهدون في توحيد صفوفهم ، وجميع المحاولات التي بذلت باءت بالفشل ، وهذا ليس سراً من الأسرار.

والغريب أننا نقرأ تصريحات لهم جميعاً يقولون فيها: ليس بيننا خلافات منهجية ، وقوتنا في وحدتنا. ومع ذلك لا تقوم هذه الوحدة.

- بعضهم يحرص على أن تكون الحكومة المؤقتة قاصرة على المنظمات السبع وجهات أخرى ، وهذا يحتاج إلى إعادة نظر ، فهناك منظمات وأفراد وهيئات أحسن من بعض المنظمات المشتركة في الائتلاف ، وهى خارجه الآن ، ونرجو أن لا يكون الائتلاف شكلاً من أشكال الاستبداد المعروفة ، ويستغل بعض القائمين عليه اعتراف الدول بهم ، وعدم اعترافها بإخوانهم.

- سرَّنا البيان الذي صدر عن علماء باكستان ، والذي ينص على أهمية جهاد المسلمين الأفغان ، وضرورة دعمهم ، ولكن المطلوب من العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية في باكستان أكبر من هذا بكثير ، فالجهاد جهادنا جميعاً ، والواجب يقتضي أن ينتظم شبابهم في صفوف المجاهدين ، وأن ينشطوا في تعبئة الرأي العام ضد الملاحدة والعلمانيين الذين يطالبون بإخراج الأفغان من باكستان.

- بدأت مشاركة الرأي العام الإسلامي قوية عند بداية الجهاد ، وتقاطر المسلمون من جميع بلدان العالم الإسلامي إلى باكستان ، فبعضهم شارك بماله ، وآخرون بمالهم وبجهادهم...ومع مرور الزمن خفت الحماسة، وضعفت الهمم ، وتثاقل الناس إلى الأرض ، ولا نريد الاسترسال في عرض أسباب هذه المشكلة ، وكيفية علاجها ، ومن المسؤول عنها؟.. فهذه مهمة العلماء الدعاة الذين يجب عليهم أن يتنادوا لمؤتمر إسلامي عالمي مستقل ليس لأية جهة سلطان عليه ، ويدرسوا هذه الظاهرة المؤسفة ، ويضعوا قرارات جادة تساعد على استمرار مسيرة الجهاد عسكرياً ، ومالياً ، وسياسياً ، وإعلامياً. وعليهم أن ينطلقوا من حقيقتين:

الأولى: المسلمون الأفغان يقاتلون نيابة عن المسلمين في كل مكان ضد الطوفان الشيوعي
الثانية: لا يستطيعون الاستمرار في جهادهم إذا تخلى إخوانهم المسلمون عنهم.. وهاتان الحقيقتان يجب أن تكونا واضحتين عند المجاهدين الأفغان وعند غيرهم.

سابعاً: وما النصر إلا من عند الله:

عندما يُفوّتُ المجاهدون المخلصون الفرصة على الأعداء ، ويحصنون صفهم ، ويأخذون بأسباب النصر الشرعية سينصرهم الله -جلَّ وعلا- كما نصر الفئة المؤمنة على جالوت وجنوده ، قال تعالى: ((قَالَ الَذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)) [البقرة: 249].
وكما نصر الفئة القليلة المؤمنة على جموع المشركين في بدر والأحزاب. قال جل من قائل: ((إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * ومَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلاَّ بُشْرَى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ومَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [الأنفال: 9 -10].
وقال: ((واذْكُرُوا إذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) [الأنفال: 26].
وقال: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً)) [الأحزاب: 9].
هذه نماذج من تاريخنا الزاخر بالأمجاد والبطولات ، أما تاريخ غير المسلمين المعاصر: فهناك نماذج تدل على أن القلة القليلة المعتدى عليها قد حققت انتصارات باهرة ، فالجنرال [جريفاس] في قبرص استطاع بقوة متواضعة لا تتجاوز مائتي مقاتل مواجهة جيش بريطانيا يوم أن كانت عظمى ، وكان تعداد جيشها في قبرص وحدها خمسين ألف جندياً ، ونجح في كسب تأييد المواطنين له ، ولم يحرص على زيادة عدد المقاتلين لأنه ما كان قادراً على تجهيز أكثر من هذا العدد ، وكان حريصاً على استقلالية القرار ، والاستقلالية تحتم عدم الاعتماد على تمويل جهات أجنبية.
وفي فيتنام: كان تعداد الجيش الأمريكي نصف مليون جندياً ، وقد ذاقوا الويلات ، وكان تعداد الجيش الذي يقاتلهم [1500] جندياً ، ولكنهم كانوا في مستوى جيد من التنظيم والإعداد والتخطيط.
أما إخواننا المجاهدون الأفغان فهم مسلمون يريدون إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة ، ولهذا فهم خير خلف لخير سلف ، وأثبتوا كفاءة عالية خلال جهاد دام أكثر من سبع سنين ، وبينهم رجال يحظون باحترام عامة المسلمين وخاصتهم في بلدهم ، وعندما تظهر بوادر غير مشجعة من العناصر التي تدور

حولها الشبهات سوف يتخلى عنهم عدد غير قليل من العاملين معهم ، وينضمون إلى صفوف المنظمات التي يحظى قادتها باحترام الأفغان.
وفضلاً عن هذا وذاك ، فطبيعة أفغانستان الجغرافية تجعل مهمة الشيوعيين السوفييت شاقة جداً ، وإذا كانت مهمة المجاهدين الأفغان شاقة في بداية الأمر ، فقد اكتسبوا والحمد لله خبرة قتالية نادرة ، وسبروا غور القوات الشيوعية ، وعرفوا مواطن الضعف عندهم... وهذه الخبرة التي دفعنا ثمنها أكثر من مليون شهيداً ، لا يجوز بحال كل من الأحوال أن نخسرها باسم ما يسمى بالحل السلمي.
إن الجيش الأفغاني المجاهد الجديد يجب أن يوقظ المسلمين في شبه القارة الهندية الذين يزيد عددهم كثيراً عن عدد سكان الاتحاد السوفييتي... وقد آن الأوان لتحرر المسلمين في أواسط آسيا وما ذلك على الله بعزيز.
اللهم وحّد المجاهدين الأفغان على المنهج الذي أنزلته على خير خلقك محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- ، وانصرهم اللهم على أعداء دينك الشيوعيين والأمريكان.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين (7).

الهوامش :

1- أهم المصادر التي اعتمدنا عليها:»أفغانستان حرب أم ثورة« للكاتب فريد هاليداي ، ترجمة سامي الجندي ، والنشرات الصادرة عن المجاهدين الأفغان.
2- تحدثنا في العدد الرابع من مجلة البيان عن دور الشيوعيين في هذه المنطقة ،كما تحدثنا في رسالتنا السابقة عن الأهداف التي جاء نجيب الله لتحقيقه.
3- انظر الصحف الصادرة بتاريخ 13/3/1987 ، الصحف الصادرة بتاريخ 26/3/1987.
4- غضب بعض الناس عندما قلنا في رسالتنا: »هناك منافقون عملاء في صفوف المجاهدين« ترى هل يغضب هؤلاء المزايدون من بيان الائتلاف الذي يضم كافة الأحزاب والمنظمات الأفغانية؟!.
5- البنيان المرصوص ، العدد الحادي عشر ، يناير /1987م.
6- هذه مقاطع من محاضرة ألقاها الأستاذ حكمتيار أمير الحزب الإسلامي في مخيم
[ورسك] في احتفال كبير عقده الحزب.
7- (تنويه):اعتمدنا في قسم جيد من معلومات وأرقام هذا البحث على نشرات ودوريات المجاهدين الأفغان ، ونحتفظ بالأصول كلها التي اعتمدنا عليها ، وقد يكون غيرنا اعتمد عليها دون الإشارة لذلك

خواطر في الدعوة

خطأ الواحد... وصواب الجماعة

محمد العبدة

[»خـطـأ الـواحـد في تدبـير الأمـور، خـيـر من صواب الجماعة التي لا يجمعها واحد، لأن الـواحـد في ذلك يسـتـدرك ، وصـواب الجـماعة يضرّي على استدامة الإهمال ، وفي ذلك الهلاك«.]

هـذا الـكـلام الـنـفـيـس للإمــام ابن حـــزم الأندلسي، وقد ذكرني ببعض أحداث تاريخنا الإسلامي ، لأرى مصداق ما ذكره: فئة معها الحق ، أو هي أقرب إلى الحق ، ومعها كل مقومات النجاح سواء في القيادة أو التضحية ، والحماس والثقة بالنفس وبالحق التي هي عليه ، ومع ذلك فقد فشلت ، فمن أين جاء الخلل؟.

لم يكن قائد هذه الـفــئـة يطـلـب الطاعة العمياء من رعيته ، ولكن بعضهم لا يستحق هذا التكريم، فتمادوا في إساءة استعمال هذه الحرية المتاحة لهم ، وأصبحوا كلهم فقهاء وساسة وقادة ، فلم يرضوا برأي قائدهم في أول الأمر ، ولا في آخره ، جاء الخطأ من حيث يجب أن يكون هو الصواب ، وأعنى احترام الآخرين وإعطاءهم حرية الشورى والكلام.

ولكنهم استخدموا هذا الحق في غير محله ، بل أن بعضهم لا يستأهل هذا الحق.

إن شبكة الترابط والالتفاف حول القيادة في صـــف كهذا تكـون ضعيفة ولذلك يخسر الذي معه الـحـــق ، فهل نستـفـيـد من هـذه الـتـجربة أم يتكرر الخطأ ، ولا يقوى المسلمون ولا يـتـمـكـنـون، وذلك لاستدامة الإهمال كما عبر ابن حزم، هذا الإهمال الذي يكون أحياناً بسبب عدم المعرفة بشـبـكـة العلاقات بين الناس ، وتداخل الأمور الشخصية مع ما يتعلق بالمصلحة الـعـامــة ، وما يترتب على ذلك من نظرات صائبة أو خاطئة لأن هذا التداخل يكون طبيعياً أحياناً ، وشاذاً أحياناً أخرى

والمجتمع المسلم سواء كان صغيراً أو كبيراً ليس هو مجتمع الأطهار الأبرار ، الذي ليس فيه أي خطأ ، أو ضعف بشري ، أو تطلعات يختلط فيها الإخلاص التام ببعض الهوى ، وليس هو بالطبع المجتمع المادي المتكالب على الدنيا وشهواتها ولكنه المجتمع الذي يتطلع دائماً إلى الأفضل ، إلى تطهير النفس من أدران الجاهلية ، فالذي يحاسب الناس على أنهم يجب أن يكونوا ملائكة تمشي على الأرض سيخسر الجولة ، لأنه لا يعلم كيف تكون العلاقات الاجتماعية.

وسبب آخر للفشل هو الفوضى التي درج عليها البعض بسبب التكريم الذي أعطوه ، فظنوا أنهم فقهاء ساسة ولأنهم تعودوا على الأوامر والخضوع ، فإذا أريد منهم أن يرتفعوا عن هذا المستوى دبت الفوضى في أوصالهم ، وظنوا أنهم لم يكرموا إلا لأنهم على مستوى عال من التمرس بالدعوة.

بهذه العقليات ، وبهذه النفسيات تتشتت الجهود ، ولو كانت النوايا صادقة ، ويشعر المسلم بالأسى كما شعر أمير المؤمنين علي -رضى الله عنه- عندما وصف أتباعه من أهل الكوفة الذين يدعون محبته فقال:
»فيا عجباً من جِدِّ هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، ولوددتُ أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم ، والله لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم. معرفةً والله جرّت ندماً. قد ورّيتم صدري غيظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان«(1).

الهوامش:

1-الجاحظ: البيان والتبيين 2 / 54.

سأحزن ما بقيتُ مع الزمان

شعر: مالك فيصل الضيغمي

سأحزن ما بقيتُ مع الزمان لما ألقاه من كُرَبٍ وآنِ(1)
فشعري كله مرآةُ شعبٍ كسيرِ العظم محزونِ الجَنَانِ
فلا تعجب إذا أرسلتُ شعراً يصور ما أعاني أو يعاني
فإني أمة كانت بخير فأسلمها الطغاة إلى الهوان
وإني أمة نشرت فأحيت وحررت العوالم بالقُران
وكان الناس في زمن تعيس يذوقون المذلة بالسنان
فصار الناس عُبَّاداً لرب يعامِلُ بالسماحةِ والحنان
فما أرضى أخا الشيطان دينٌ يقوم على الأمانةِ والأماني
ويزرع في النفوس بذور خيرٍ لتعلو في المكان وفي الزمان
فلا تعجب إذا أكثرت شعراً وقولاً غيرَ مقرونٍ بقان(2)
فعذري أمةٌ نامت طويلاً وغالت بالفصاحة والبيان
معاذَ الله أن أهوى حياةً يدغدغها الأراذلُ بالقيان(3)
وتوحيدُ الصفوف رأيت فيه دواءً للتنازع والشَنان(4)
وجدٌ في الأمور، وليتَ جمعاً دَرَوْا من قبلُ هاتيك المعاني

الهوامش:

1- آن: حار.
2- أي: أحمر وهو الدم.
3- المغنيات.
4- لغة في الشنآن: البغض.

ماذا وراء تفجير مركز أهل الحديث في لاهور

أقـامــت جمـعية أهل الحديث حفلاً خطابياً في مركزها في مدينة لاهور - باكستان- في 23 رجب من هذا العام.
ونجح المجرمون الآثمون في زرع قنبلة في مزهرية جاء بها أحد الجناة قبل نصف ساعة من وقوع الحادث الأليم، وأعطاها لأحد الحاضرين الذي سلمها للذي بجانبه حتى وصلت إلى المنصة - هذه رواية رئيس شرطة البنجاب - ، وانفجرت القنبلة الساعة الحادية عشرة ليلاً ، فأسفر عن انفجارها استشهاد سبعة وإصابة حوالي 100 شخص بجروح بينهم عشرة كانت جروحهم خطيرة، وفقد أربعة سمعهم بسبب شدة الانفجار، وكان من بين القـتلى: الشيخ عبد الخالق قدوسي نائب أمير الجمعية، والشيخ حبيب الرحمن يزداني أحد كبار العلماء، والشاب محمد خان رئيس جماعة "جنود الشباب لأهل الحديث" - رحمهم الله جميعاً -.
أما أمير الجمعية الشيخ "إحسان إلهي ظهير":فأصيب بجروح خطيرة ، ونقل على الفور إلى أحد مستشفيات لاهور، وبعد بضعة أيام تم نقله إلى أحد المستشفيات في مدينة الرياض غير أن روحه فاضت في 30/ 3/1987 ودفن في البقيع في المدينة المنورة، رحمه الله رحمة واسعة .

والسؤال الذي يفرض نفسه:

من قـتـل الـشـيخ إحسان إلهي ظهير وإخوانه ؟ ، ومن هذه الجهة التي استباحت مركزاً إسلامياً آمناً بمثل هذه الصورة التي وصفها رئيس تحرير صحيفة [جنك] التي تصدر في لندن في 30 / 3/1987 ، فقال:
»إن هذا العمل يعتبر الأول من نوعه يتم في اجتماع ديني أو سياسي على صعيد باكستان« .

وللإجابة على هذا السؤال نقول:

لم تعلن حكومة باكستان عن القـتلة، ونحن لا نملك دليلاً أكيداً ... ولكن هناك قرائن لابد من ذكرها:
إن معظم ما كتبه الشيخ إحسان إلهي ظهير -رحمه الله- كان يدور حول الباطنيين: عقائدهم، فضائحهم، أقوال كبار علمائهم، وكان يكتب بالعربية والأردية والفارسية، ولم يـقـف نـشـاطـه عـنـد الـتـألـيـف والكتابة بالصحف، وإنما كان يعقد الندوات، ويجوب المدن متحدثاً عن الباطنيين محذراً من مؤامراتهم ومكائدهم.
ومن جهة أخرى: فالذين كان يهاجمهم وينقدهم يعتقدون بأن أهل السنة نواصب ، وهذا يـعـنـي: أنـهـم كفار مرتدون عن الإسلام، ويجوز قتلهم أفراداً وجماعات، كما يجوز هدم مـسـاجـدهـم ومـراكـزهـم.
ومن آخر ما اقـتـرفـتـه أيـديـهـم: عمليات إبادة شملت الفلسطينيين جميعاً في لبنان.

ومـن جـهــة رابـعـة: فلهم أطماع في العالم الإسلامي بشكل عام، وفي شبه القارة الهندية بـشـكـل خـاص، ولـعـل هذا من الأسباب التي دعت رئيس شرطة البنجاب إلى القول: »إن الحادث قد تم بأيد خارجية« [الصحف الباكستانية الصادرة في25/3].
وربما كان المجرم باكستانياً في الهوية ، ولكنه في الحقيقة منهم ، ولا يتحرك إلا إذا أمروه.
وقد أشرنا إلى أطماعهم في باكستان ، في العدد الرابع من هذه المجلة [باكستان أمام التحديات].
ومن جهة خامسة: كان للشيخ إحسان إلهي ظهيٌر حوارٌ مع أحد قادتهم قبل الحادث الأليم بيوم واحد، واستمر الحوار حوالي ست ساعات ، وشهد الجمهور بأن إحسان إلهي ظهير قد أقام الحجة على المرجع الباطني..
ومما يضاعف من اتهامنا لهذه الجهة: أن المنتمين إليهم قد أعربوا عن ابتهاجهم وغبطتهم بنتائج هذا العدوان الأثيم ، داخل باكستان وخارجها ، في حين استنكرت الأحزاب الباكستانية الجريمة ونددت بالمجرمين.
ومن المؤسف أننا وجدنا من يقول بأنه كان للفقيد خصوم كُثُر ، وأنه لعل الشيوعيين هم الذين نفذوا الجريمة من أجل زيادة القلاقل والاضطرابات في باكستان ، أو ربما كان حزب الشعب [بوتو] وراء هذه الجريمة.. الخ.
والذي نقوله: لو كان المجرمون من الشيوعيين أو من حزب الشعب لاختاروا مركزاً آخر ومنطقة أخرى، فمركز أهل الحديث بقيادة الشيخ إحسان كان من أشد خصوم الباطنيين ، ولم يكن بينهم وبين حزب الشعب ولا غيره مثل هذه العداوة ..
ونخشى أن يكون الباطنيون وراء نشر مثل هذه الإشاعات.
ومن الجدير بالذكر:أن قتل الشيخ إحسان إلهي ظهير وإخوانه في مركزهم الإسلامي جاء بعد قتل الشيخ الدكتور صبحي الصالح بعد أن انتهى من أداء الصلاة في مسجد من مساجد بيروت.
ومثل هذه الجرائم المـتكررة تفرض على علماء ودعاة أهل السنة دراسة هذه الظاهرة دراسة جادة، ووضع كافة الوسائل التي تمكننا من تفويت الفرصة على أعدائنا الذين لا يخشون الله، ولا تقف جرائمهم عند حد معين.

مجال العقل البشري
وحاجة البشر إلى الرسالة

د. سليمان العايد

غالت الـبـشـرية في نظرتها للعقل ، ولاسيما بعد أن فتح الله للعقل مجالات رحبة في علوم الفـضـاء والـذرة ، واكتشفوا سراً من أسرار الكون التي كان يجهلها وظنت أن بإمكانها أن تستغني عما جاء به الأنبياء، فطرحوا الشرائع

السماوية جانباً ، وسنوا لأنفسهم الأنظمة، وشرعوا لحياتهم القوانين، وأحلوا ما اشتهته أنفسهم ، وحرموا ما اشمأزت منه نفوسهم، استناداً على ما تمليه عقولهم القاصرة وخيالاتهم الممرورة ، فحاربوا الدين السماوي بحجة تحرير العقل من قيوده وإفساح المجال له ليقوم بواجبه، من وضع الأنظمة وسن القوانين، ولم يسبق هؤلاء في مقالتهم إلا طائفة وثنية في بلاد الهند تدعى البراهمة ، وهم من عُبّاد البقر.

والعقل في التصور الإسلامي له وضع يليق به ، لا يرتفع ليكون إلهاً ، ولا يمتهن ليكون صاحبه كسائر الحيوانات، إذ من المسلم أن العقل له قدرة في معرفة ما يصلحه وما يضره، وقدرة في معرفة الحسن من القبيح معرفة فطرية ، ولكن هذه المعرفة وهذا الإدراك من العقل أمامه إشارات تجعله لا يقدر على تسيير الحياة وحده دون وحي ، ومن هذه:

1- معرفة الغيب الذي أخفاه الله عن خلقه على حقيقته ، كمعرفة صفات الله ، والملائكة والجن والنار والجنة ، وما أعده الله لعباده من الثواب والعقاب ، ونحو ذلك من الأمور التي لا تقع تحت الحس.

2- إدراكات العقل مجملة لا مفصلة ، فقد يدرك أن هذا الفعل حسن مثل العدل ، ويدرك أن هذا الفعل قبيح مثل الجور ، وقد يعجز عن تحديد عمل من الأعمال: هل هو عدل أو جور؟.

3- أن العقول قد لا تقدر على معرفة الحسن من القبح ، وخاصة إذا تَضّمْن الفعل مصلحة ومفسدة ، أو كان ظاهره الفساد وباطنه المصلحة.

قال ابن تيمية: »الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول« [مجموع فتاوى شيخ الإسلام 2/312].

4- اختلاف العقول الإنسانية ومستوى إدراكها، فقد يستحسن عقل مالا يستحسنه آخر، ويستقبح عقل مالا يستقبحه آخر ، مما يوقعها في متناقض الآراء ، ويحيل هذه الآراء فرضيات لا حقائق مقطوعاً بها.

5- العوامل التي تؤثر في إدراك العقل البشري تبذر بذور الشك في صحة ما تنتهي إليه العقول.

دور العقل البشري:

ولنا بعد هذا أن نتساءل عن عمل العقل ، وعما يمكن أن يقدمه للبشر؟

إن عمل العقل هو التفكر في مخلوقات الله. واستخراج كنوز الأرض وخيراتها ، بما يتوصل إليه من علوم في الطبيعة ، وأما الأمور التي لا تقع تحته فليس له أن يبحثها ، كالأمور التي وراء الطبيعة ، كما أن ليس له أن يستعبد العقول الإنسانية الأخرى ، وعليه أن يذعن للوحي ويخضع له ، ويجتهد في فهمه وتدبره ، واستنباط ما لم يصرح الوحي به ، ويخفى على بعض العقول ، مع التواضع لله ، والتسليم لوحيه ، وعدم إنكار ما يستوعبه العقل ، أو تكذيبه.

وقد آن الأوان لنشرع في تفصيل أوجه حاجة البشرية إلى الرسالة السماوية فنقول:
لا يمكن إنكار فضل العقل في إدراك الحسن والقبح ، ولكن هل يكفي إدراكه لتحمل تبعة التكليف والمسؤولية ، وهل يكفي لاستحقاق الثواب أو العقاب ، وهل يغني العقل عن الرسالات السماوية؟

هذه أسئلة دار حولها جدل قديم يحسن بنا أن نلم بخلاصة وافية عنه ، فنقول:

قد ثبت في الصحيح عن عياض ابن حمار ، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: »إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب« والمقت هو البغض بل هو أشد البغض.
وبجانب هذا المقت نجد أن الله لا يعذب إلا ببعث رسول ، قال تعالى: ((وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)) وقال: ((وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونَخْزَى)) [طه 134] ، ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ومَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلاَّ وأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)) [القصص 159]، وقال قبلها: ((ولَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ونَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ)) [القصص 147] ، وقال: ((لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)).
فالعذاب مرتب في الآيات على بعث الرسل ، وقيام الحجة بهذا البعث ، وإن كان مقتضى تعذيب الأمم موجوداً ، لأن الله مقتهم ، وبين استحقاقهم للعذاب ، ولكن الله سبحانه رؤوف بعباده يحب العذر منهم ، ويقبله ، لما ورد في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: »ما أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل ، من أجل ذاك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب« ، وفي رواية: »من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وما من أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وما من أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن«.
وقد اختلف الناس هل يعلم حسن الأقوال والأفعال وقبحها بالعقل أم لا؟ وهل يرتب على ذلك ثواب وعقاب أم لا؟
ويمكن حصر هذه الأقوال في ثلاثة مذاهب:
أولها: مذهب القائلين بأن ذلك لا يعرف إلا بالشرع وحده دون العقل ، وهذا قول الجهم بن صفوان وإخوانه ، وقول أبي الحسن الأشعري واتباعه كالقاضي أبي بكر بن الطيب ، وأبي عبد الله بن حامد ، والقاضي أبى يعلى ، وأبى المعالي وأبي الوفاء بن عقيل ، وغيرهم.
وثانيها: أن العقل قد يعلم حسن الأقوال والأفعال وقبحها ، والذي يخالف ما يتوصل إليه العقل يستحق عذاب الآخرة بمجرد مخالفته للعقل ، وإليه ذهب المعتزلة والحنفية ، وأبو الخطاب محفوظ بن أحمد.

وثالثها: أن العقل قد يعلم حسن الأقوال والأفعال وقبحها ، ولا تقوم به الحجة وحده ، ولا يستحق العذاب من خالفه إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل -صلى الله عليهم وسلم- ، ويقول هؤلاء: لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة. لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها ، ويوصفون بالكفر الذي يذمه الله ويبغضه ، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً ، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح كما تقدم: »إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربي قال لي: قم في قريش فأنذرهم. قلت: إذاً يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة ، قال: إني مبتليك ومبتلٍ بك ، ومنزل عليك في كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان ، فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أُنفق عليك«
وقال: »إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً«.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: »كل مولود يولد على الفطرة« وفي رواية: »على هذه المـلـة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟« ثم يقول أبو هريرة -رضي الله عنه-:" اقرأوا إن شئتم:((فِطْرَتَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)) قيل: يا رسول الله أرأيت من يموت وهو صغير؟ قال:(الله أعلم بما كانوا عاملين« ".
ومع مقت الله لهم ، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً ، وهذا يدل على إبطال قول من قال: إنهم لم يكونوا مسيئين ، ولا مرتكبين لقبيح ، حتى جاء السمع. وقول من قال: إنهم كانوا معذبين بدون السمع ، إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية ، وإما لمحض المشيئة كما يقوله الجبرية.
والأصول التي جاء بها الأنبياء - ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراكها حق الإدراك- هي:
1- ما جاءوا به من إثبات الصفات والتوحيد والقدر ، وذكر أخبار الرسل مع الأمم وغيرها.
2- الشرائع المفصلة بالأمر والنهي وبالإباحة ، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.
3- الثواب والعقاب ، ويوم القيامة ، وحياة الدار الأخرى.
وليس المقصود أن يميز الإنسان بين ما ينفعه وما يضره بالحس ، فإنه واقع للحيوانات ، إذ يستطيع الحمار والجمل التمييز بين التراب والشعير ، فيأكل الثاني ويدع الأول ، وإنما المقصود التمييز بين النتائج المترتبة على الفعل في المعاش والمعاد ، وما يحصل بسببها من ثواب وعقاب ، وهذا لا يهتدي إليه إلا بالرسالة، "ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد ، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم: أن

أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبين لهم الصراط المستقيم ، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم ، بل أشر حالاً منها".

وخـــلـــق الله الـبـشـريـــة ودينها دين الفطرة، دين التوحيد، الدين الذي ارتضاه الله لها، ((ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً)) ، ((ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ)) ، وقال: ((وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ)) [الأعراف172-173] ، وقـــال تــعــالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِــكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِـــنَ المُـشْرِكِينَ * مِنَ الَذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) [الروم30-32].

وقـــال رســـول الله -صلى الله عليه وسلم-: يــقــول الله: »إني خلقت عبادي فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم«.

فكانت البشرية أول أمرها مؤمنة بربها ، موحدة له ، ثم طرأ الشرك عليها ، فأرسل الله الرسل يعيدونهم إلى الفطرة ، ويردونهم إلى جادة الصواب ، ويذودونهم عن حياض الشرك ، قال تعالى: ((قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)).

وكانت الرسل تقوم بالبشارة والنذارة ، وتقيم الحجة على الخلق ، وتبين لهم منهج الله وشرعته، ذلك أن الله خلق البشر وطلب عبادتهم له، وشرع لهم ديناً أبلغه إليهم بواسطة رسله من الملائكة والناس ، ((اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ)) ، واختارهم من أفضل البشر ، ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ))، وطلب منهم دعوة الناس إلى ديـــن الله، ولم يدع البشر لأنفسهم يضعون المناهج، ويشرعون الشرائع، ويقررون المعتقدات، ويفسرون العوالم ، لأن هذا من التكليف بما لا يطاق ، ((لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وسْعَهَا))، ((لا تُكَلَّفُ نُفْسٌ إلاَّ وسْعَهَا))، ودعا المؤمنون ربهم أن لا يكلفهم فوق طاقتهم، ((رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)) فقال الله: (قد فعلتُ).

وأنَّى للإنـــســـان أن يـضـع لنفسه تصورات صحيحة عن الله وما يجب له ، وعن الـكـون، والملائكة والجن والحياة الآخرة.. ولو تــرك الـــبـــشـــر وشـــأنـهـم يجتهدون في وضع هذه التصورات لسمعنا بالمضحكات ، وقد سمعنا بعض تصورات الفلاسـفـــة الساذجة التي تدل على ضحالة في الفكر ، وقلة في الإدراك ، وكيف لعقل لم يؤت من العلم إلا قليلاً كيف له أن يحيط بكل شيء علماً؟، وكيف لعقل قد خلق لأمر أن يبدع في مجال ليس له؟.

ومن ناحية الشرائع:لو وكَّل البشر إلى أنفسهم يضعون المناهج، ويشرعون الشرائع، ويسنون الــقـــوانـــيـــن والأنظمة ، فإن عملهم هذا لا يمكن أن يسلم

من الهوى البشري ، والضعف الإنساني ، وقصور العلم والإدراك، علاوة على ما يقوم عليه من الشرك ، وتعدد الآلهة ، وخـضـوع الإنـسـان لأخـيـه الإنسان ، وتشريع بعض البشر لبعض ، وما يقوم عليه من تصورات قاصرة عن الإنـسـان ذاته ، وعما حوله من عوالم ، وما يكتنفه من أسرار ، وما يلحقه من حياة ، قد لا تراعى في وضع مثل هذه الأنظمة والشرائع والتصورات.

لـهـذه الأسـبـاب جميعاً وجب على البشر اتباع منهج يضعه رب العالمين يتعبدهم به، ويحققون بلزومه رضاه، وينجون من عذابه ومـقـتـه، ويفوزون بجناته الوارفـة، مع مـا يتحقق لهم في الحياة الدنيا من عودة بهم إلى دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، دين الإسلام، إسلام الوجه لله وإفراده بالألوهية، وتحقيق العبادة له دون سواه وبذلك يتحدد اتجاه الإنسان ، ويسلك طريقه الذي أريد له ، فالإنسان حين يخضع لغير الله ، ويتعبد بغير دينه ومنهج غير منهجه إنما يمزق نفسه بهذا العمل ، قال تعالى: ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ورَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)) [الزمر 29].

فالإنسان حين يبعد عن الله يمزق نفسه التي تخضع لله في جوانب كثيرة ليس للإنـسـان فيها أدنى تحكم، إذ لا يستطيع أن يحدد أجله وحياته ، وأبـويـه وجـيـلـه ، وصورته الـخـلـقـيـة ، ومواهـبه الفردية ، ولا يستطيع أن يتحكم بالدورة الدموية وسائر وظائف الأعضاء.

ويـلـقـى الأمـريـن حين يخرج عن فطرته ، ويقهر نفسه على أشياء ليست مجبولة عليها، فـيـعـيـش حـيـاتـه باضطراب وقلق ، قال تعالى: ((وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)).

وقال تعالى: ((كَذَّبَ الَـذِيـنَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) [الزمر:25،26].

فتتصارع الدوافع والجواذب داخل النفس البشرية ، تحاول أن توفق بين الفطرة والنزعات الطارئة، وتحاول أن توفق بين الرغبات المختلفة، رغبات الآلهة والأهواء والنفس ، ((يَـا صَـاحِـبَـيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ أَسْـمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)) [يوسف39،40].

ويـعـيـش الإنسان نتيجة هـذا الـصـراع في اضطراب وقـلق، ولا تكاد قدمه تثبت معه على حال، ولا يـكـاد بـصـره يسـتقـر على نظر، ولا تطمئن نفسه إلى قرار، ولا تسكن روحه إلى شـيء، ولا يـرفـع هـذا كـله إلا العودة إلى منهج الله ليصلح هذه النفس، ويربيها على أقوم منهج ((أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِياً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [الملك: 22].

((فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى * ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإنَّ لَهُ مَــعِـيــشَــةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَــــالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى * وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ولَمْ يُؤْمِنْ بِآيَـــاتِ رَبِّهِ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى)) [طه 123-127].

محنة الدعاة في الصومال

قبل عام أو يزيد قليلاً ألـقــت السلطات الصومالية القبض على عدد كبير جداً من الدعاة، وأودعتهم السجون والمعتقلات ، ونسبت إليهم تهمتين:
الأولى: محاربة النظام القائم.
والـثـانـية: إدخـال كتب ممنوعة ، منها: كتب ومؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، ورسائل الشيخ عبد العزيز بن باز - حفظه الله -، ومؤلفات الأستاذ سيد قطب.
ورافـقــت عـمـلـيـة الاعـتـقـال حملة إعلامية هدفها تشويه سمعة الدعاة، وكان الصوفيون الـخـرافــيـون أهـم ركـائـز هـذه الحملة الظالمة التي استخدمت الإذاعة والتلفاز والصحف والمساجد، واستنفرت كافة أجهزة السلطة في نشر الإشاعات والأراجـيـف، ومع ذلك كان كيدهم ضعيفاً ، ففي حديث إذاعي تكلم خرافي كبير فقال:
إن هـؤلاء الأشـرار [عليه من الله ما يستـحـق] يقولون باستواء الله على عرشه، وينكرون التوسل بالأولياء والصالحين، ويكفرون المسلمين، وما إلى ذلك من أقوال.
وفوجئنا قبل صدور هذا العدد بأن محكمة الأمن الوطنية في الصومال قد أصدرت حكمها بإعدام الدعاة الآتية أسماؤهم:
1- عبد العزيز فارح.
2- محمود شيخ فارح.
3- الشافعي محمود محمد.
4- يوسف معلم عبدي.
5- محمد عثمان سيدو.
6- حسن طاهر أويس.
7- نور بارود جرحن.
8- حاشي علهي.
9- أويس محمد إبراهيم.
وحكمت بالسجن 15 سنة مع الأشغال الشاقة على الإخوة الآتية أسماؤهم:
1- عبد العزيز حسين.
2- محمود جامع.

3- محمد هبروا.
وتـدخـل وسـطـاء؛ فـأوقــف المسؤولون تنفيذ أحكام الإعدام .. والذي نود توضيحه للقراء نوجزه فيما يلي:
1- إن هـؤلاء الـدعــاة لـيسوا نكرات، لقد تخرج معظمهم من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وكانوا نماذج طيبة في سلوكهم وعلمهم ومعتقداتهم ، وهم حقاً يقولون باستواء الله على عرشه، ويثبتون ما أثبته الله لنفسه من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ، ويحاربون الخرافات، وبشكل أكثر وضوحاً فهم سلفيون في المنهج والاعتقاد ، ولا يكفرون أحداً من المـسلمـين بذنـب أو مـعـصية، وعلى نقيض ذلك فكبار رجال السلطة والخرافيون هم الذين قالوا بتكفير هؤلاء الدعاة الطيبين.
2- اعتدنا سماع هذه التهم الباطلة التي يلصقها الظالمون بالدعاة الطيبين كقولهم: يحاربون النظام، وقولهم: كانوا يخططون لانقلاب ضد النظام، وما إلى ذلك من أكاذيب، ونستطيع وصف الجريمة وأبعادها قبل أن نطلع على أقوال النظام ، لأن ما يقال صورة طبق الأصل لصور اعتدنا سماعها مع اختلاف يسير في الشكل و الإخراج.
وإذا كانت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، ونشر معتقدات السلف الصالح -رضوان الله عليهم -، والاجتماع على ذلك مع التحذير من البدع والخرافات والمتاجرة بالدين وسوء استغلاله.. نقول: إذا كانت هذه الأمور كلها تآمراً ، إذن ، فالعلماء الطيبون ، والدعاة المخلصون ، والشباب الغيورون على دينهم كلهم متآمرون!.
3- يأبى الله إلا أن يظهر الكذاب على حقيقته ، فأقوال محكمة النظام تخالف [شريط كاسيت] لازلنا نحتفظ به ، ورغم ما فيه من شتم لهؤلاء الدعاة فهو شهادة ببراءتهم ، واعتراف من النظام بتورطه في مخططات وجرائم ضد الدعاة...
وقد يسأل سائل: ما علاقة نظام علماني بالصوفية والخرافيين؟ وماذا يريد هذا النظام -وهو علماني- من الاستواء ، والتوسل وغير ذلك من الأمور التي لا يعتقدها ولا يؤمن بها؟.
وجوابنا على ذلك من وجهين:
الوجه الأول: إن تعاون الصوفيين الخرافيين مع العلمانيين حقيقة تتكرر في جميع بلدان العالم الإسلامي ، وهناك روابط بينهم من أبرزها الشرك ووحدة الوجود والحلول ، ونقصد بهذا غلاة الصوفيين.
الوجه الثاني: يستغل العلمانيون الصوفيين الخرافيين ، ويتخذون منهم أداة لضرب الصف الإسلامي من داخله ، والصوفيون انتهازيون نفعيون يحقدون أشد الحقد على دعاة الإسلام الذين يلتزمون منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم-... وقصارى القول: أن الأهواء والمصالح هي التي تربط بين

الطرفين ، ولا يقتضي هذا أن يحب كل طرف الطرف الآخر ، فأصحاب الأهواء والمصالح لا يحبون ولا يعظمون إلا أنفسهم.
4- كيف تكون كتب أهل السنة والجماعة خطراً ويحكم بالإعدام على كل من ثبت أنه أدخلها إلى البلاد، وتكون كتب المبشرين مباحة ولا مانع يمنع من إدخالها وتوزيعها وتدريسها؟!.
كيف تغلق المدارس الشرعية التي قدمت خدمات لا تنسى لأبناء الصومال ، وتشجع المدارس التبشيرية؟! ففي [مقديشو] وحدها أكثر من ثلاثين مدرسة صليبية!.
كيف يجري التضييق على دعاة الإسلام ، ويمنعون من ممارسة نشاطهم في بيوت الله؟! بيوت الله ، وليست بيوت زعماء النظام وسدنته.. نقول: كيف يجري التضييق على دعاة الإسلام في حين كان الشيوعيون يشرقون ويغرِّبون في الصومال دون حسيب ولا رقيب ، وعندما اختلفوا مع قادة [الكرملين] أصبح رسل [واشنطن] يشرِّقون ويغرِّبون؟!.
5- كنا ولازلنا نتمنى أن يشرح الله صدور القادة العسكريين في مقديشو للحق ، ويتوبوا إلى الله من جرائم اقترفوها كان من بينها: إعدام عشرة علماء من كبار علماء الصومال عام 1975 ، لأنهم عارضوا النظام عندما غيَّر آخر ما تبقى من شرع الله ، وسن قانوناً يقتضي بمساواة الذكور والإناث في الميراث.. وتتابعت الجرائم بعد ذلك ، وكانت موضع احتجاج واستنكار الدعاة في كل بقعة من العالم الإسلامي ، ولكنهم -بكل أسف- وبعد 12 عاماً من جريمتهم الأولى يقدمون الآن على الحكم على علماء آخرين بالإعدام ، ويزجون بمئات من الدعاة في السجون من بينهم الشيخ: محمد معلم حسن ، رغم ما يعانيه من أمراض ، والشيخ محمد نور قوي.
ألا فليعلم هؤلاء العسكريون بأن الصومال بلد مسلم عريق يعتز بدينه وعقيدته ، وقد ابتلاه الله في تاريخه الطويل بطغاة كُثُر ، كانوا يظنون أنهم خالدون فلفظهم وبقى الإسلام عزيزاً قوياً ، وسيبقى الإسلام فيها شامخاً كريماً.
ألا فليعلم العسكريون أن دعاة الإسلام لا يخشون سجون الظالمين ومعتقلاتهم ، ولا يخيفهم التهديد ولا الوعيد ، وسجْن نفرٍ منهم يغذي الدعوة ويطورها ، وسوف يهيئ الله لدينه رجالاً يحبهم ويحبونه ، يجاهدون في سبيله من أجل أن يكون الدين كله لله في الأرض.
إن مشكلة الصومال ليست مع هؤلاء الدعاة الأبرار الأخيار، وإنما المشكلة في الفقر المدقع، فهل حل هذا النظام العسكري مشكلة الفقر؟! وكل صومالي يعرف بأن عدد الـفـقـــراء في ازدياد.
ومـشـكلة الصومال مع الانتهازيين والوصوليين الذين يسرقون قوت الفقراء والمـحـتـاجـين، وقد كثر عددهم مع مجيء هذا النظام.
والــعــلــمــاء الــدعــاة أكبر ثروة تملكها الأمة، وهم عماد نهضتها وسر قوتها، ومساكنهم ونواديهم ليست السجون والمعتقلات ، وإنما المساجد والمدارس

والجامعات والنوادي ، وهم الذين يعالجون المجرمين وقطاع الطرق والمدمنين على المخدرات.. ولن يسلم من عقوبة الله وبــطــشـــه الذين ينكلون بالدعاة ويطاردونهم. قال تعالى: ((إنَّ الَذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ويَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ويَقْتُلُونَ الَذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُوْلَئِكَ الَذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)) [آل عمران/21].

مشاهداتي في بريطانيا

المرأة الغربية والزواج

د. عبد الله مبارك الخاطر

قارئي الكريم: قلت لك منذ البداية: إنني طبيب في الأمراض النفسية ، وهذا العمل يتيح لي مشاهدة الوجه الآخر لمجتمعاتنا ، والاتصال بأصناف متعددة من الناس رجالاً كانوا أو نساءً،ومن طبيعة الذين يعملون في مثل هذه الاختصاصات الاهتمام بمشكلات الناس ، وقد يسير أحدهم في الشارع فتلفت انتباهه أمور لا يهتم بها المارة.. وكم أتمنى أن يهتم العلماء الدعاة بمثل هذه القضايا ويقدمون لها الحلول الناجعة،وسيكون دورهم أهم من دور الأطباء ورجــال الأمـن ؛ لأن مخالفة تعاليم الإسلام من أهم العوامل التي أدت إلى نشوء مثل هذه الأمراض.

وقـد حـرصـت عـلـى ذكـر هذه المقدمة حتى لا يستغرب القارئ ما أذكره له من أحــداث، وبشكل أخص زيارة النساء لنا في العيادة، والاســتـمـاع إلـى مـشـكـلاتـهن، ولا علاج بدون الاستماع إلى هذه المشكلات ومناقشتها.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى الحديث عن المرأة الغربية والزواج ، فأقول:

كنت أستغرب عند بداية إقامتي في بريطانيا أن المرأة هي التي تنفق على الرجل ، وكنت أشاهد هذه الظاهرة عندما أركب القطار أو أدخل المطعم ، إذ ليس في قاموس الغربيين شيء اسمه "كرم"..

وبعد حين زال هذا الاستغراب ، وأخبرني المرضى عن أسباب هذه الظاهرة، وفهمت منهم بأن الرجل لا يحب الارتباط بعقد زواج،ويفضل ما أسموه [صديقة]،والمرأة تسميه [صديقاً] ، وليس هو أو هي من الصدق في شيء ، وكم أساءوا لهذه الكلمة النبيلة ، فالصديق يعني: الصدق، والمحبة، والمروءة، والنخوة، والكرم، والوفاء، وما إلى ذلك من معان طيبة كريمة.

والصديق عندهم يعيش مع امرأة شهوراً أو سنين ، ولا ينفق عليها ، بل هي تنفق عليه في معظم الحالات، وقد يغادر البيت متى شاء ، أو قد يطلب منها مغادرة بيته ، إن كانت تعيش معه في بيته ، ولهذا فالمرأة عندهم تعيش في قلق وخوف شديدين ، وتخشى أن يرتبط صديقها (!!) بامرأة ثانية ويطردها ، ثم لا تجد صديقاً آخر.

وكما يقولون »بالمثل يتضح المقال« ، فسوف أختار مثالاً واحداً من أمثلة كثيرة تبين وضع المرأة عندهم:
رأيت في عيادة الأمراض النفسية امرأة في العشرينات من عمرها ، وكانت حالتها النفسية منهارة ، وبعد حين من الزمن شَعَرتْ بشيء من التحسن ، وأصبحت تتحدث عن وعيٍ ، فسألتها عن حياتها ، فأجابت والدموع تنهمر من عينيها ، قالت:
مشكلتي الوحيدة أنني أعيش بقلق واضطراب ، ولا أدري متى سينفصل عني صديقي ، ولا أستطيع مطالبته بالزواج منى ، لأنني أخشى من موقف يتخذه ، ونُصِحتُ بالعمل على إنجاب طفل منه ، لعل هذا الطفل يرغبه في الزواج ، وها أنت ترى الطفل ، كما أنك تراني ولا ينقصني جمال ، ومع هذا وذاك فأبذل كل السبل ؛ من تقديم خدمات ، وإنفاق مال ، ولم أنجح في إقناعه بالزواج ، وهذا سر مرضي ، وسبب قهري إنني أشعر بأنني وحدي في هذا المجتمع ، فليس لي زوج يساعدني على أعباء الحياة ، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمه سواء ، وليتني بقيت بدون طفل ؛ لأنني لا أريد أن يتعذب ويشقى في هذه الحياة كما تعذبت وشقيت.
وهذه المرأة المريضة ليست من شواذ المجتمع الغربي ، بل الشواذ هم الذين يعيشون حياة هادئة.. ومع ذلك ينقد الغربيون مجتمعاتنا الإسلامية ، ويزعمون بأن المرأة تعيش في بلادنا حياة بائسة محزنة، ونحن لا يهمنا رأي الغرب بنا، ولا نطلب منه حسن سلوك، ولكن نريد من نسائنا أن يحمدن الله سبحانه وتعالى على نعمة الإسلام ، فلقد كانت في الجاهلية ذليلة مهينة ، وجاء الإسلام ليرفع مكانتها ، وبفضل من الله سبحانه وتعالى أصبح الرجل يبحث عن المرأة ، ويطلب الزواج منها ، وهي قد تقبل وقد ترفض ، ولأهلها دور كبير في أمر زواجها ، وسواء كانت عند زوجها أو في بيت أبيها فهي عزيزة كريمة ، والرجال هم الذين ينفقون عليها، بل والذي نشكو منه في بلادنا الغلو في المهور ، والتكاليف الباهظة التي تفرض على الرجل حتى يحصل على زوجة ، ((يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَـمُـنُّـوا عَـلَـيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَـمُـنُّ عَـلَـيْـكُـمْ أَنْ هَـدَاكُـمْ لِلإيمَانِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ))[الحجرات/17].

أدب وتاريخ

مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي (6)
الجاهلية والإسلام

محمد الناصر

ملخص الحلقة السابقة:

في الحلقة السابقة خلص الكاتب إلى العصر الإسلامي، بعد أن أوجز القول مرة أخرى في مقومات الحياة السياسية من خلال الشعر الجاهلي، وبدأ في الحديث عن ملامح ومقومات تلك الفترة الفضلى مبتدئاً بمنهج التربية الإسلامية.

ج- آثار هذه التربية:

وكان من فضائل هذه التربية العقدية ، أن تخرج عليها جيل فريد من الصحابة ، ارتفعوا فـوق جـواذب الـجـاهـلـيـة، وأصـبح ولاؤهم لمجتمع العقيدة، سواء في مكة المكرمة حيث الـتـعـذيــب والابـتــلاء والصبر، وتعميق أسس البنيان المبارك، أم في المدينة المنورة حيث الأخوة والإيثار والجهاد في سبيل الله.
إنها تربية واقعية ، طبقت ، وتحقق بسببها ميلاد جيل جديد من البشر ، ترى ماذا لو فـكـر الـدعـاة في عصرنا الحاضر في تطبـيقها، وغرسها من جديد في نفوس الناشئة، أفلا يتخلصون مما هم فيه من خلل واضطراب ؟، ألا يعيدون للمسلمين واقعاً حياً نظيفاً ؟
وحتى لا نتكلم في فراغ فلنستعرض بعض النماذج من سيرة السلف الصالح ، وكتب السيرة ممتلئة بعطرها الفواح ، عسى أن تكون لأجيال اليوم نبراساً يضيء لها ظلمة الطريق.
كان سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - من السابقين الأولين للإسلام، وكان باراً بأمه حمنة بنت أبي سفيان، قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه!، وبعد يـومـيـن ولـيلـتين من امتناعها عن الطعام والشراب جاء إليها سعد وقال: يا أماه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني، فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية:((وإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً))
[سورة لقمان:15].
وأمر بعدم طاعتهما في الشرك:»لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق«(1).
لقد ارتفع سعد - رضي الله عنه - بإيمانه رغم بـره بـأمـه ، وضحى بها لو ماتت جوعاً وعطشاً على أن يساوم على عقيدته..
وأبو بكر -رضي الله عنه- خير نموذج لتربية دار الأرقم ، يرد جوارَ ابن الدغنة ليبقى في جوار ربه ، ويكاد يشرف على الموت ، إذ ضرب ضرباً شديداً وتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟ ورفض الطعام والشراب حتى يطمئن على رسول الله ، وعندما رآه -عليه الصلاة والسلام- صحيحاً معافى في دار الأرقم اطمأنت نفسه(2).

رجل يشرف على الموت مثخناً بالجراح ، يرفض الطعام والشراب حتى يطمئن على حياة رسول الله..
وأبو سفيان زعيم قريش وسيدها:"قدم على ابنته أم حبيبة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بـنـيـة ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله، عليه الصلاة والسلام وأنت رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك يا بـنـيـة بـعـدي شـر«" (3).
هكذا تتبرأ أم المؤمنين من أبيها ، وتقول له بكل صراحة: إنك مشرك نجس ..!
ما أجدر بنات اليوم ، وأمهات الأجيال المعاصرة ، بالقدوة ومفاصلة الشرك وأهله. وقصة الصحابي الجليل عبد الله ابن حذافة السهمي وموقفه من ملك الروم حيث أغراه بمشاطرة ملكه فرفض، وهدده بالـقـتـل والحرق، فأبى أن يتنصر وهو الأسـير المـجـاهـد .. كل ذلك بسبب عزة الإيمان ، في تلك النفوس العظيمة (4).
ما الذي جعل هذا الصحابي الجليل يتعالى على ملك الروم، وقد كان (بالأمس) كل عربي يتمنى أن يحظى بالدخول إليه ؟
وموقف أبي عبيدة أعجب وأعظم ، لقد قتل أباه في بدر ، كان كافراً محارباً لله ورسوله ، ولم تكن صلة الأبوة لتمنعه من ولائه ونصرته لله ورسوله والمؤمنين ، وفيه نزلت الآية الكريمة: ((لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ)) (5)
إن الصـبـر والابتلاء كان سـمة الفــترة المـكية، وما التعذيب الذي لقيه خباب، وصهيب، وبلال، وآل ياســر (رضي الله عنهم جميعاً) عن أذهاننا بـبـعـيد .. والمقاطعة في الشِّعب وحصار المسلمين ومَنْ ناصرهم من بني هاشم .. عـبـر آلام وتـضـحـيـات لحـمـتـها الـتربية القرآنية، وحب الله ورسوله..
هـذا الـجـيـل كان مـنـهـجـه التلقي من الكتاب والسنة للتنفيذ والعمل، أما مـنهج الـتلقي للدراسة والمتاع فهو الذي خرج الأجيال اللاهية المتخاذلة.
بهذه الصورة تكونت قـاعـدة صلـبة من المؤمـنـين، حتى استطاعت أن تقاوم الجاهلية بكل أوضارها وتفاهاتها ثلاثة عشر عاماً في مكة المكرمة، وهذه الدروس (في العقيدة) لحمة التربية فيها ..

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: (6)

وفي المدينة المنورة، اسـتـقـبل الأنـصـار المهاجرين وشاطروهم الديار والأموال، وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله ، وقد أصبح حب الأنصار من عقيدة الإسلام وبغضهم نفاق ؛ ففي الحديث الصحيح: » آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار«. قال تعالى:((والَّذِينَ تَبَوَّءُوا

الدَّارَ ولا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)) [الحشر9].
لقد تكون المجتمع الإسلامي في العهد المدني ، فمن الهجرة إلى المؤاخاة ، إلى قيام الدولة المسلمة ، إلى الجهاد في سبيل الله وهيمنة الشرعية الإسلامية.
بهذه الأخوة تكون المجتمع المسلم ، وضرب مثلاً رائعاً في التكافل الاجتماعي ، وبناء الجماعة المسلمة.
"ولقد أبدى الأنصار كرماً وسخاء في معاملتهم للمهاجرين ، وكانت المؤاخاة رباطاً قوياً متيناً جمع المهاجرين والأنصار بما يترتب على ذلك من حقوق وصلت بل تساوت مع حقوق الأخوة في النسب"(7).
"هكذا نلاحظ أن الإسلام صنع من العرب نماذج فريدة ، أنكر الفرد نفسه ، وقطع صلته بأبيه وبابنه ، وهجر المال والمتاع ، وأصبح له طريق جديد ووجهة جديدة ، أصبح يسعى لتوه بالافتراق عن مجتمعه الجاهلي، أو أنه يسير في طريقه المحدد والمجتمع يهيم في غير طريق ، وتنقطع الأواصر بينه وبين ذاك المجتمع ولو كانت أواصر القربى ، ويتجه قلبه لتوه إلى كيان آخر يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه ، ذلك هو رسول الله والقلة المؤمنة«(8).

د- شعر الدعوة الإسلامية:

وقد ساهم الشعراء في هذا العصر في شـعـرهـم بمـعانٍ وقـيـم مـسـتـمـدة من التصور الجديد ، ولتعاليم الدعوة الإسلامية ، مسخرين مواهبهم للدفاع عن قيم هذا الـمـجـتـمـع الوليد ..
إن أغراض الشعر من فخر وهجاء ورثاء وحماسة ، تغير مفهومها ، وسمت قيمها ..
فهذا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يفـتـخر بالسبق إلى الإسلام (9):

سبـقـتـكم إلى الإسلام طرا صغيراً ما بلغت أوان حِلمي

ويفتخر سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- بأنه أول من رمى بسهم في الإسلام (10):

ألا هل أتى رسولَ الله أني حميت صحابتي بصدور نبلي
أذود بـها أوائـلـهم ذيـاداً بـكل حـزونة وبـكل سـهـل
فـمـا يـعـتـد رامٍ في عـدوٍ بـسـهـم يا رسـول الله قبلي

ويصبح فخر حسان بن ثابت -رضي الله عنه- بالإسلام ونبيه ووحيه ، وبكتيبة المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، يقول قبل فتح مكة (11):

عـدمـنا خـيـلـنـا إنْ لـم تـروهـا تـثـيـر الـنـقـع مـوعـدهـا كـداء
فـإمـا تـعـرضـوا عـنا اعـتـمـرنا وكـان الـفـتح وانـكـشـف الـغـطـاء
وإلا فـاصـبـروا لـجـلاد يـوم يـعـز الله فـيـه مـن يـشـاء
وجـبـريـل أمـيـن الله فـيـنـا وروح الـقـدس ليس له كفاء(12)

والهجاء يتحول نحو المشركين ، دفاعاً عن رسول الإسلام وصحابته الكرام ، فيقول حسان -رضي الله عنه- يهجو أبا سفيان بن الحارث وهو من قريش.. من بني هاشم ، لأنه من الشعراء المشركين ، وقد اشترك في هجاء الرسول -صلى الله عليه وسلم-:

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخِبٌ هواء(13)
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء(14)
هجوتَ محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت مباركاً براً حنيفاً أمين الله شيمته الوفاء (15)
فإن أبي ووالده وعرضي لعِرض محمد منكم وقاء

رضي الله عن حسان ، لقد كان شاعر الخزرج في الجاهلية يدافع عن أحساب قومه ، وهاهو يفدي نبيه بالنفس والعرض والأهل..

أبو سفيان هذا أسلم ، وحسن إسلامه ، ثم ندم على ما فرط في جاهليته ، فقال (16):

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلبَ خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي

إن الإسلام يجبُّ ما قبله ، إلا أنه الشعور بثقل الماضي ، ورهافة حس الشعراء ..

والرثاء: بكى فيه شعراءُ الدعوة الإسلامية شهداءَ المجتمع الجديد ، مجتمع العقيدة ، ولنستمع إلى أبيات من قصيدة كعب بن مالك الأنصاري -رضي الله عنه- يرثي فيها شهداء مؤتة ، إذ يقول (17):

نام العيون ودمع عينك يهمل سحاً كما وكفَ الطِّبابُ المخْضَلُ (18)
في ليلة وردتْ عليّ همومها طوراً أخِنُّ وساعة أتململُ (19)
واعتادني حزْنٌ فبتُّ كأنني ببنات نعشٍ والسّمال موكلُ
وجداً على النفر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صبروا بمؤتةَ للإله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

الرثاء للقادة ، للشهداء جميعاً وبألم وحزن ، لأن المصاب واحد ، والمشاعر واحدة ، لقد أصبح »المثل الأعلى للرجل المسلم في عصر صدر الإسلام هو السبق إلى الإسلام والهجرة ، وملازمة المصطفى وصحبته والتقوى والورع .. ثم الشجاعة والذياد عن حياض الإسلام«(20).

وأخيراً: تبين لنا أن التربية الإيمانية أساس كل تغيير ، ولابد من تطبيقها ، وليس لدينا خيار في هذا الأمر ، لابد من العودة العميقة ، والمعايشة الحية مع إخوة الإيمان.. إن هذه التجربة ، صنعت المعجزات ، صنعت الجيل الأول ، الذي تخلص من جاهلية جائرة ، واستعلى على ضغوط المجتمع وأعراف الآباء والأجداد.

ما أجدر الدعاة اليوم أن يتعالَوْا على أعراف فرقت ومزقت وليس لهم فيها سَنْدُ شرعي!

ما أجدرهم أن يهتموا بتربية دار الأرقم ، ومدينة الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام -، وأن يعلموا ثقل المسؤولية ، وعظم الأمانة في هذا العصر.
إن مسلم اليوم "مهمته خطيرة ؛ لأنه لا يطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادي ، إنما يطلب منه أن يكون نموذجاً يحتذى.. يلزمه تدريب من نوع خاص ، يتعود فيه على التخفف من جواذب الأرض.. والمطلوب لدور البناء والتأسيس: أن يكون المسلم على الدرجة العليا من الإيمان.. المطلوب نماذج فائقة من البشر.. تستطيع أن تتجرد لله ، وأن تحتمل المشقة في سبيل الله"(21).
إن هذه التربية ، وهذا الإيمان ، هو الذي خلص العرب من الشرك واستعباد القبيلة ، وحرر عقولهم من الهوى والخرافة ، وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس ، وقد غيرت مجرى التاريخ.

الهوامش:

1- حديث صحيح: مشكاة المصابيح ح 3696/2: 1092 ، والقصة وردت في تفسير البغوي:5/188.
2- انظر البداية والنهاية لابن كثبر 3 / 30.
3- السيرة النبوية لابن هشام 2/396.
4- انظر الإصابة لابن حجر 2/288.
5- المصدر السابق 2 /244.
6- انظر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في سيرة ابن هشام 1/ 501 وما بعدها ، والولاء والبراء ص 193 د: محمد سعيد القحطاني.
7- تطور الفكر السياسي في الإسلام 2 /76-77 د. فتحية البزاوي و د. محمد نصر مهنا.
8- منهج التربية الإسلامية 2 / 46 -بتصرف يسير.
9- شعر الدعوة الإسلامية: جمع وتحقيق عبد الله الحامد.
10- الإصابة 2 / 32.
11 - ديوان حسان بن ثابت: ص 209.
12- نظير.
13- مجوف. نخب هواء: أي: جبان لا قلب له.
14-عبد الدار: بطن من قريش.
15- الحنيف: الذي يدين بالحق.
16- ابن سلام ص 206 ،طبقات الشعراء.
17- انظر العقيدة في السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الثاني ص385 ، وشعراء الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: عبد الله الحامد ، ويحسن الرجوع إليه ؛ ففيه شواهد كثيرة (مطبوعة الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية 1971م).
18- الطباب: سير بين خرزتين في المزادة ، والمخضل: الرطب المبتل.

19- الخنين: حنين ببكاء ، وهنالك رواية (أَحِنُّ).
20- الشعر الجاهلي في صدر الإسلام. د. عبد الله الحامد.
21- منهج التربية الإسلامية 2 /65،67،بتصرف يسير.

نافذة للأمل

علي بن الجهم

عرض وتعليق: د. مصطفى السيد

1- قالت: حُبِسْتَ ، فقلت ليس بضائرٍ حبسي ، وأي مُهَندٍ لا يغمدُ
2- أوَ ما رأيتِ الليثَ يألفُ غِيلَه كِبراً وأوباشُ السباعِ تَرَدَّدُ
3- والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاءَ الفرقدُ
4- والبدرُ يُدرِكُهُ السِّرارُ فتنجلي أيامُهُ وكأنهُ متجدِّدُ
5- والنارُ في أحجارها مخبوءةٌ لا تُصْطَلَى إن لم تُثرها الأزنُدُ
6- والزاعبيةُ لا يقيم كُعوبَها إلا الثقافُ وجَذوةٌ تتوقَّدُ
7- غِيَرُ الليالي بادئاتٌ عُوَّدٌ والمال عاريةٌ يعادُ وينفَدُ
8- ولكل حالٍ مُعْقِبٌ ولربما أجلى لك المكروه عما يُحْمَدُ
9- كم من عليلٍ قد تخطاهُ الردى فَنَجَا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
10- والحبسُ ما لم تغشَهُ لدنيةٍ شنعاءَ نعم المنزلُ المتَوَرَّدُ
11- بيتٌ يُجَددُ للكريم كرامةً ويُزارُ فيه ولا يزورُ ويُحْفَدُ
12- لو لم يكن في السجن إلا أنَّها يستذلُّك بالحجابِ الأعبُدُ

شرح الأبيات:

1- عيرتني أن أصبحت رهين الحبس ، ولكن كما أن السيف لا عار عليه إذا أدخل في غمده ؛ فكذلك أنا لا يضيرني أن دخلت السجن.
2- ولئن صرت نزيل السجن فلا تعجبين من ذلك ، فالأسد قد يأوي إلى غيله ، بينما ضعاف السباع وأوباشها تروح وتغدو حرة طليقة.
3- وحتى يرى الناس ضوء الفرقد (وهو نجم صغير) لابد من غياب الشمس ، وإلا لما عُرف ضوء هذا النجم. (يشبِّه نفسه بالشمس المحجوبة ، وأعداءه بالفرقد).
4- وعندما يعود البدر هلالاً آخر الشهر ، فليس معنى هذا أنه سيستمر إلى آخر الدهر هكذا ، وإنما سيرجع ليكون بدراً من جديد.
5- والنار ، وهى عنصر ضروري للحياة ، لا تنبعث شرارتها من الحجر إلا بعد استثارتها وضربها بالزند.

6- والرماح المستوية لا تصبح هكذا ، إلا بعد عملية شاقة ، حيث يقوِّم اعوجاجها الثقاف ، وتزال عقدُها بالحك والقطع ، ويشحذ نصلها بإحمائه في النار المتوقدة.
7- ومصائب الأيام ليست مقصورة على أحد ، بل تبدأ بواحد وتثني بآخر ، والمال الذي يتباهى به كثير من الناس إن هو إلا عارية مستردة ،(وقد أخذ الشاعر وصف المال من كلمة أبي طالب حين خطب السيدة خديجة -رضي الله عنها- للنبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: وإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة).
8- إن مجيء الليالي بالسراء مرة وبالضراء مرة أخرى سنة ثابتة ، وربما كان الخير فيما تكرهه من الملمات والمصائب.
9- كم من مريض أشرف على الهلاك ، ولكنه أبَّل من مرضه ، وعوفي من علته ، بينما مات قبله الطبيب الذي عالجه ، ومن عاده أثناء مرضه.
10- والحبس منزل كريم ، وعنوان فخر لنازله ، إن كان دخوله بسبب رأي أو عقيدة ، لا بسبب فعلة شنيعة.
11- فهو بيت يحفز الكريم على التمسك برأيه ويجدد له صبره وصموده ، ويزوره فيه أصحابه ويكرم فيه. (وهذا كان عندنا في العصور الوسطى -التي يسميها الجهلة: عندنا عصور الظلام- ،حيث يكرم سجين الرأي ويزار ، أما في سجوننا التي شيدت في القرن العشرين ، هل بنا حاجة إلى وصف إكرام نزلائها؟! وهل يجرؤ أهلهم وذووهم على السؤال عنهم فضلاً عن طلب زيارتهم؟!).
12- وللسجن ميزات كثيرة عند الشاعر ، ولو لم يكن للسجن من فائدة إلا أنه يكفيك شر الحجاب وسفاهتهم وغلظتهم حيث يدفعون الناس عن الوصول إلى أولي الأمر ، لكانت فائدة عظيمة.

حول الأبيات :

تـفـــردت بـالألـم الـعـبـقـــري وأنـبـغ مـا فـي الـحـيـاة الألـم

التحدي مستنبط كوامن العبقرية ، ومنبع خبء (1) الذكاء ، وكم نازلة حلت بأمة فكانت نــقــطـة تحول في تاريخها، ومبعث رقدتها من مجثمها (2)، وكثيرة هي الروائع الأدبية التي كان الــبــاعــث عليها السجن أو المرض ، أو ما سواها من مكدرات العيش ومنغصات الحياة.
والقصيدة التي نقدمها اليوم تسايلت معانيها من ذلكم الوادي ، وسُقِيَتْ صوب (3) ذاك الغمام.
فمن وراء القضبان أرسل الشاعر علي بن الجهم هذه التأملات المعمقة عن السجن ، وإذا ما سُجنت الأُسْد فهي مخوفة ، لا خائفة ، وكم من طليق سجين ، وكم من سجين طليق!.

وعلي بن الجهم من فحول شعراء العصر العباسي الأول ، تميز عن شعراء ذلك العصر بعقيدة سليمة ، على ندرة ذلك في أقرانه الذين تقاسمت أكثرهم ساحة الاعتزال مع حلبات اللهو والمجون والانحلال.
وهو أحد رجال الطبقة الأولى من طبقات الحنابلة ، وعلى الرغم من أن المعتزلة والروافض قد انخفض صوتهم في عهد المتوكل ، ولم تعد لهم تلك الصولة التي كانت لهم زمن المأمون والمعتصم والواثق ، إلا أن بقاياهم ظلت في دوائر الحكم بعد ذلك ، واستمر تأثيرهم من وراء حجاب ، وكانوا لا يفتأون يدبرون المكائد لخصومهم من أهل السنة ، وما حصل لعلي بن الجهم مثال على ذلك ، فقد ائتمر به »بعض ندماء المتوكل وبعض المعتزلة وأصحاب البدع ، واجتمعوا على الإغراء بقتله«(4).
واختلاب الفرص من قِبَل أهل البدع خُلقٌ ثابت لهم ، شأنهم في كل عصر ومَصر ، ولهم أسلوبهم المميز في التخلص من كل حاجز من الحواجز التي تحول بينهم وبين بدعهم.
وبسبب من هذا الحقد البدعي الأعمى وجد علي بن الجهم نفسه نزيل السجن ، فلم يتضعضع لهذه الصدمة القاسية ، بل نجده يضيء السجن بمصابيح عبقريته ، ويمتعنا -على بعد الشقة- بنبل هذا الموقف.
وبالرغم من انحسار المد الاعتزالي ، وعودة الأمور إلى نصابها في خلافة المتوكل ، إلا أن ذلك لايعني أن دوائر الحكم العباسي قد كنست كلها ، أو صفيت جلها من عقابيل هذا الفكر التفـتيتي التقزيمي ، بل بقيت زمرٌ تعمل وراء الكواليس لتصفية الحساب مع بعض رموز أهل السنة.
ولعل في ذلك إيماءةً تاريخية ، وإشارة فقهية لمن يتصدون للبحث التاريخي ، وهي: أن سقوط هيكلية أي فكر لا تعني زواله تماماً.
وفي ضوء هذه المقولة نفهم كيف تمكن أعداء الاتجاه السني من الزج بابن الجهم في غياهب السِّجن.
وبسبب من شعلة الإيمان التي لم تخبُ جذوتها في فؤاده ، وعدالة موقفه ، وشعوره بالظلم الفادح النازل به ، اجتمعت هذه الأمور لتكون مصهراً لشاعريته.
إن سجنه كشخص ، لم يحبس عواطفه شاعراً ، بل أطلق لهذه الأخيرة العنان ، لتصوغ لنا هذه الدرة اليتيمة التي تعد من أدب المقاومة للظلم ، ومن أدب الدفاع عن حقوق الإنسان ، كما في سطورها من (الحداثة) الحقيقية -وليست الوهمية الغائبة أو المغيبة كما في شعر مُدَّعى الحداثة في هذا الزمن- ، فيها من الحداثة الدائمة التأثير والصادقة التعبير ما يضمن لها حضوراً متجدداً وتأثيراً متصلاً.
كما تقول لنا -القصيدة- بوضوح: إن السجن -على ضيقه- بوابة إلى عالم أوسع ، ومرقاة إلى مرتبة أرفع ، فقد يكون إحدى مراحل اختبار الإيمان ، وتوضيح الرؤية ، وجزى الله الشدائد كل خير ففيها تعرضٌ لثواب الصبر ، وإيقاظٌ

للقلب من الغفلة ، وادِّكارٌ للنعمة في حال الصحة واستدعاء للتوبة ، وفي قضاء الله وقدره بَعْدُ الخيار.

الهوامش:

1- خبء: مدّخر: مخبوء.
2- المجثم: أسم للمكان الذي يُجْثَم فيه.
3- الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.
4 -- الأغاني:1/230.

وإذا قلتم فاعدلوا (2)

بقلم: عبد العزيز بن ناصر السعد

من لوازم العدل ومقتضياته:

هـذا الـبـاب هو بـيـت القـصـيـد من هذا الـبـحـث، لأن المقصود من إثارة هذا الموضوع هو الـتـعـرض للـجـوانب العملية التي يفرضها العدل على المسلم، وخاصة في واقعنا المـعاصـر، وما نشأ فيه من تفريط في هذه الجوانب ، ونقتصر فيها على ما يلي:

1- التثبت من الأمر قبل الحكم عليه:

إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى لنا في سورة الإسراء ، وفي آية واحدة ، المنهج الصحيح الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول -عز وجل-: ((ولا تقف مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)) [الإسراء 36].

وحول تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله-: »قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تقل. وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني: شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت ، ولم ترَ ، وسمعتُ ، ولم تسمع ، وعلمتُ ، ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله« ، ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال ، كما قال تعالى: ((اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ)) اهـ (1).

وحول ظلال هذه الآية يقول سيد قطب -رحمه الله تعالى-:

»والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة ، ((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً))، وهـذه الـكـلـمـات القـلـيـلـة

تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة.
والتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ؛ هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.
الأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ، ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعيتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد. إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة.
((ولا تَقْـفُ مـَا لَـيْـسَ لَـكَ بـِـهِ عِـلْـمٌ)).. ولا تـتـبع ما لم تعلمه علم اليقـين، وما لم تتثبت من صحته؛ من قول يقال ورواية تروى، ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية.
في الحديث: »إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث« [فتح الباري 9 /5143] ،وفي سنن أبي داود (بئس مطية الرجل:"زعموا"« [عون المعبود 13 / 4591]، وفي الحديث الآخر:»إن أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا« [مسند أحمد 8 / 66]. وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل ، الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة ، ولا يروي حادثة ، ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثّبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها ، ((إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)) حقاً وصدقاً ا.هـ(2).

2-العدل في النقد ومعالجة الخطأ:

هذا الجانب من جوانب العدل يحتاج إليه في كل حال من أحوالنا الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشاكلنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص. ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا من أمرنا الله -عز وجل- ، بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه-صلى الله عليه وسلم- ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته -صلى الله عليه وسلم- ،بل إن سيرته -صلى الله عليه

وسلم- كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد: ألا وهو موقفه -صلى الله عليه وسلم- من صنيع حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- في فتح مكة ، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ، ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول -صلى الله عليه وسلم- في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته:
روى الإمام البخاري -رحمه الله- في "صحيحه" ، عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: »بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا مرثد والزبير -وكلنا فارس- ، قال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها ، حيث قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقلنا: الكتاب؟. فقالت: ما معنا من كتاب ، فأنخناها ، فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا: ما كذب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؛ لتخرجن الكتاب ،أو لنجردنك ، فلما رأت الجد ، أهوت إلى حجزتها - وهى محتجزة بكساء - فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال عمر:يا رسول الله ؛ قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم-:ما حملك على ما صنعت؟ قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال -صلى الله عليه وسلم-: صدق ، ولا تقولوا إلا خيراً. فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال: أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة-أو:فقد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم« ا هـ (3).
من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ ، مهما كانت ضخامته
1-المرحلة الأولى: مرحلة التثبت من وقوع الخطأ ، وفي هذه الحادثة قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ، ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله -عز وجل- إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة ، وأين هي المرأة.
2-المرحلة الثانية: مرحلة التثبت وتبُّين الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ ، وهذا الأمر متمثل في قوله في -صلى الله عليه وسلم- لحاطب:(ما حملك على ما صنعت؟) ، وهذه المرحلة مهمة ، لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذ لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن مقنعاً ، ولكنه طمأن رسول الله -

صلى الله عليه وسلم- على صدق حاطب وأنه لازال مسلماً ، نقول: إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية فإنه يصار إلى:
3-المرحلة الثالثة: وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ ، وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في بحر حسناته ، وهذا هو الذي سلكه الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع حاطب -رضي الله عنه- ، حيث قال -صلى الله عليه وسلم- لعمر عندما استأذن في قتل حاطب: »أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة-أو: غفرت لكم -«.
وقد ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله- كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ،حيث قال في رده على من قال: إن الله يعافي الجهال مالا يعافي العلماء؟:
"فالجواب: أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث ، ومن هذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر:(وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) ، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات. ولما حض النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصدقة، فأخرج عثمان -رضي الله عنه- تلك الصدقة العظيمة ، قال:(ما ضرَّ عثمان ما عمل بعدها) ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي -صلى الله عليه وسلم- حتى صعد على ظهره إلى الصخرة:(أوجب طلحة) . وهذا موسى كليم الرحمن -عز وجل- ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي -صلى الله عليه وسلم- ؛ وقال: شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي؟ ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبي الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره ، والأذى الذي أوذي به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه،ولا تخفي منزلته ، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أنه من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة ،كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن كثير
والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات الذين آثروا محابه ومراضيه ، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم) ا هـ (4).

خلاصة ما سبق حول هذا اللازم:

أن العدل في القول والفعل ، ومعالجة الأخطاء لو سلكنا فيها ذلك المسلك النبوي السابق تفصيله لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من كيل التهم ، والتشهير ، وتتبع العثرات ، والذي لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه ، ولا يفرح الشيطان بشيء كفرحه بالفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد روى الإمام مسلم- رحمه الله- في "صحيحه" عن جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:»إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، فيجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا؟ فيقول: ما صنعتَ شيئاً ، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال: فيدنيه منه ويقول:نعم أنت) ، قال الأعمش: أراه قال: يلتزمه. (5). فإذا كان فرح الشيطان بالفرقة بين الزوجين بهذه الدرجة فكيف يكون فرحه بالفرقة بين دعاة المسلمين؟ ولو أن أحدنا إذا سمع شائعة عن مسلم أو طائفة ما قام بالتثبت منها ، فإنه يصبح أمام أحد أمرين: إما أن تكون الشائعة لا أصل لها ، وأنها مجرد ظنون وأوهام كاذبة ، فيقضى عليها في مهدها ؛ وإما أن يكون الأمر صحيحاً بعد التثبت ، فيصار إلى المرحلة الأخرى ، ألا وهي: البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى وجود هذا الخطأ ، إما من صاحب الشأن ، إن كان ذلك ممكناً ، أو سؤال من يعرفه ، أو من التمعن فيما كتبه ، إن كان ذلك مكتوباً...الخ.
وهذا هو مراد الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لحاطب: (ما حملك على ما صنعت؟) ،وإذا اتضح الدافع المؤدي إلى وجود هذا الخطأ وكان مقنعاً من الناحية الشرعية ، فإن الأمر ينتهي عند ذلك.. وإن لم يكن مقنعاً فإنه يصار إلى المرحلة الثالثة ، ألا وهي النظر إلى حسنات هذا الشخص وبلائه وجهاده ، لعل له حسنات عظيمة ينغمر فيها هذا الخطأ ويصبح ضئيلاً في الوقت الذي يسعى لتعديل الخطأ والمناصحة فيه بمحبة وإخلاص وحكمة.
ولعله قد تبين لنا الآن من الحديث حول هذا اللازم المهم من لوازم العدل ، وتبين لنا الفرق بين العدل في القول والعمل ، وأثر ذلك في النصيحة والإصلاح والائتلاف ، وبين الاعتداء في القول والعمل ، وما ينتج عنه من تشهير وفرقة واختلاف ، وذلك في وقت نحن معاشر أهل السنة والجماعة بحاجة شديدة إلى الوحدة والائتلاف لا إلى الفرقة والاختلاف.

3- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبتهم له:

ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ، لأنه يمثل -في نظري- قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم فضلاً عن عامتهم إذا رأوا غيرهم قد أخطأ فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه غلبة ، بل إنك ترى الكثير منهم يتتبع الكتابات والمقالات التي قالها غيرهم وهمهم الوحيد هو تتبع العثرات ، والفرح باصطيادها ، في الوقت الذي لو وجدوا خلاف ذلك (من إصابة غيرهم للحق) فإنهم يحزنون لهذه الإصابة ، وهذا -والعياذ بالله- هو الظلم والحقد والحسد والذي لا يلتقي مع العدل وحب الخير للناس ، وما أحسن الحكاية التي ذكرها ابن رجب -رحمه الله- حول هذا الأمر حيث قال: (وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته؛ فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث ، أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه أو معنى هذا ، فقال أحمد: ما أعقله من رجل)(6).

4- الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته:

ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم: أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفةً ما ، فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ، حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ، ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقديس.

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات ، أو أنهم يشككون في نوايا فاعليها ، في الوقت الذي لا يذكرون إلا الأخطاء مع التضخيم والتهويل لها ، ومعلوم ما في ذلك من ظلم واعتداء ومجانبة للعدل والإنصاف ، وما أظن أحداً من المسلمين يوافق على هذا المنهج الجائر ، لكن القناعات النظرية شيء والتزامها في الواقع شيء آخر!!

بقي أن نعرف المنهج الشرعي في مثل هذه المواقف ، ألا وهو: الشهادة للمحسن أنه محسن ، ويذكر له ذلك بتجرد وإنصاف ، والشهادة للمسيء بأنه مسيء ، والنصح له في ذلك، وتلمس العذر ، إن كان ثمة عذر شرعي لإساءته (كما سبق في المنهج الشرعي لمعالجة الخطأ) والانتباه إلى أن كل بني آدم خطاء ، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم -صلى الله عليه وسلم- ، وأن الاعتدال في الحب والكره من لوازم قول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ)) الآية [النساء 135].

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح -رضي الله عنهم- ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين؟، وكيف كانوا يقوِّمون الرجال؟. فلقد روى الإمام مسلم في "صحيحه" عن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة أسألها

عن شيء ، فقالت: من أنت؟ فقال رجل من أهل مصر ، فقالت: كيف صاحبكم لكم في غزاتكم؟ فقال: ما نقمنا منه شيء ، إن كان ليموت للرجل البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أن أخبرك: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وفي بيتي هذا: »اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به«.

ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله:"وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل الفضل ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها"(7).

وهذا الإمام ابن كثير -رحمه الله- يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلام طويل:"وبالجملة كان -رحمه الله- من كبار العلماء ، وممن يخطيء ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه أيضاً مغفور له ، كما في" صحيح البخاري":(إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا صاحب هذا القبر -صلى الله عليه وسلم-)ا هـ (8).

ويقول الإمام ابن رجب -رحمه الله - في كتابه (الفرق بين النصيحة و التعيير): (ولهذا كان الإمام أحمد -رحمه الله- يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ، ويقول: وإن كان يخالف في أشياء فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً. وكما قال وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ، فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم ولا استدلالهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله) ا هـ (9).

ويذكر ابن الجوزي -رحمه الله -في كتابه "سيرة عمر" (202) قول عمر -رضي الله عنه -: ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه) ا هـ (10).

ونختتم هذا اللازم من لوازم العدل ببعض آراء مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من مخالفيه سواء في الفروع أو الأصول:

يقول -رحمه الله- في ج 3 ص 348 في جوابه عن قوله -صلى الله عليه وسلم-: (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) ما الفرق؟، وما تعتقده كل فرقة من هذه الصنوف؟ ،فقال في معرض جوابه:

(... ومما ينبغي أيضاً أن يعرف:أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ، فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ؛ لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ؛

ورد باطلاً بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه ، وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات) ا هـ (11).

5- الابتعاد عن النجوى:

إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهى عامل مهم في ترويج الشائعات. يقول الله عز وجل: ((إنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَذِينَ آمنوا ولَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إلاَّ بِإذْنِ اللَّهِ وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ)) [المجادلة 10] والنجوى لا تأتي بخير إلا في أحوال ثلاثة ذكرها الله عز وجل في سورة النساء حيث قال سبحانه: ((لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ))؟ وما سوى ذلك فهو شر وتفريق بين المؤمنين.
والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما ، ينقسمون ، حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف:
الصنف الأول: من يقبل هذه الشائعات على علاتها ، ويكتمها في نفسه ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين.
الصنف الثاني: من يقوم بالتناجي بها ، بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعة وانتشارها.
الصنف الثالث: من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم.
ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم- لاتضح لنا أن الصنف الأول والثاني مخالفون للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية التي تقوم على التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم والتماس الأعذار لهم. وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في عتاب المسلم لأخيه المسلم ، إذا وصله من أخيه ما يسوءه.

6-سلامة القلب:

يقول الله عز وجل: ((يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)) [الشعراء 88 - 89]، وقد ورد في تفسير ابن كثير حول هذه الآية أن القلب السليم هو السالم من الشرك ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما ، وقال

سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن.ا هـ (12).
وعلق القرطبي في تفسيره 15 / 91 عن عوف الأعرابي قال: سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم؟ قال: الناصح لله عز وجل في خلقه. ا هـ.
وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال: (بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم) (13). وعلق ابن حجر رحمه الله بقوله: ورواه ابن حبان في صحيحه وزاد: (فكان جرير إذا اشترى أو باع يقول لصاحبه: اعلم أن ما أخذناه منك أحب إلينا مما أعطيناك فاختر).
من ذلك يتبين أثر سلامة القلب في العدل مع الناس ، حيث أن صاحب هذا القلب مطمئن البال هادئ النفس يحب الخير للناس ويبذل النصح لهم وهذه هي صفات أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين مدحهم الله عز وجل بقوله:
((والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)) [الفتح 29].
ومثل هذا يلقى له القبول بين الناس حتى وهو يرد على الأخطاء والانحرافات فإنه يصاحبه في ذلك شعور بالشفقة وحب الهداية للغير ، لا مجرد الرد والخصومة والجدال ، كما هو الحال في كثير ممن يتصدى للمخالفين له أو لشيخه ، حيث إن الأمر يصل به إلى الاعتداء في كلامه لمن يخالفه في الفروع التي يسعها الخلاف فضلاً عن الأصول لا لشيء إلا لأنه خالفه أو خالف شيخه وكفى.
وخلاصة القول في (سلامة القلب) أنه أصل للوازم السابقة كلها ، فبسلامة القلب ، والنصح لله عز وجل في الخلق ، يتم العدل في جميع الأمور السابقة ، وصاحب القلب السليم لا يؤذي المسلمين ولو آذوه ، ولا ينقم لنفسه. وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين أحد عشر مشهداً فيما يصيب المسلم من أذى الخلق وجنايتهم عليه ، نكتفي بمشهد واحد حيث يقول -رحمه الله-:
(المشهد السادس: مشهد "السلامة وبرد القلب" وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه ، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره ، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب ، وأعون على مصالحه ، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده ، وخير له منه. يكون بذلك مغبوناً والرشيد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس ، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام) ا هـ (14).
ولقد اطلعت على رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى تلامذته بدمشق ، وفيها تبرز هذه الصفة بجلاء ، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها ،

ولكن نكتفي بمقاطع منها ، يقول -رحمه الله- بعد السلام والأشواق إلى تلامذته:
»وتعلمون من القواعد العظيمة ، التي هي من جماع الدين تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول: ((واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا)) ويقول: ((ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنهى عن الفرقة والاختلاف وأهل هذا الأصل: هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة« إلى أن قال في نفس الرسالة: »وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي ، فتعلمون -رضي الله عنكم- إني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً ، لا باطناً ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة ، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه ، مغفور له ، والثالث: فالله يغفر لنا وله ، ولسائر المؤمنين فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل: فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان أوذى الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء الله. وقد عفا الله عما سلف« إلى أن قال -رحمه الله- في نفس الرسالة: »فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي ، أو ظلمه وعدوانه فإني قد أحللت كل مسلم. وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي. والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي« ا هـ (15).

7- الصدق والوضوح:

إن هذا اللازم يعتبر أيضاً سبباً من أسباب حصول العدل فهو نتيجة وسبب في نفس الوقت ، لأن الصدق يؤدي إلى العدل ، والعدل يستلزم الصدق والوضوح في الأقوال والأفعال. وأردت من إيراد هذا اللازم الإشارة إلى ما يقع في زماننا هذا من الأساليب الغامضة في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وعدم الوضوح في المقاصد والوسائل ، وهذا كله يؤدي -شئنا أم أبينا- إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح.
وهذا الغموض وعدم الوضوح وسوء الظن بالمسلمين من الأمراض الخطيرة التي تؤدى إلى إذكاء العداوة والفرقة بين المسلمين ، وعدم اطمئنان بعضهم إلى بعض في الوقت الذي يفترض الصدق في المسلم ، وأن لا يُساء الظن به ، أو أن مراده من كلامه كذا وكذا.. الخ. ولقد مرَّ بنا في الطريقة التي عالج بها الرسول -صلى الله عليه وسلم- خطأ حاطب -رضي الله عنه- ، كيف أنه -

صلى الله عليه وسلم- عندما سمع من حاطب عذره قال: صدق لا تقولوا إلا خيراً. ولم يذهب إلى سوء الظن به ، واتهامه بالكذب ، أو باللف والدوران كما يقولون. وإن الصدق منجاة وخير كله في الدنيا والآخرة. والصدق في الحديث أمر لازم لاطمئنان القلوب بعضها ببعض ، وطريق إلى التآلف وحصول البركة ، فلقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن حكيم بن حزام -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: »البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، أو قال حتى يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما«(16).

فإذا كان الصدق سبباً لحصول البركة للمتبايعين على سلعة ، والكذب والكتمان يمحق بركة بيعهما ، أقول: إذا كان الأمر كذلك في أمر من أمور الدنيا فكيف يكون الحال إذا كان الصدق أو الكذب على أمر من أمور الآخرة لأن الدعوة عبادة يراد بها الدار الآخرة ، فلأن يصدق هذا الحديث على ذلك من باب أولى والتجربة أكبر شاهد ، حيث أن الصدق والوضوح بين أصحاب الدعوة وحسن الظن فيما بينهم ينتج عنه نتائج طيبة ، ويبارك الله عز وجل في جهودهم وتعاونهم ، والعكس بالعكس فإن الكذب والأساليب الملتوية لم ينتج عنها إلا الفرقة وسوء الظن وتشتيت الشمل. وهنا يجب إيضاح أن لا تعارض بين وجود الصدق والوضوح وبين الكتمان فإن كان لابد متحدثاً فليكن صادقاً وواضحاً وإلا فليصمت. ثم إننا نقصد بكل ما سبق أهمية هذا اللازم بين المسلمين بعضهم مع بعض ، أما الكافرون والمنافقون فإن التعامل معهم يجب أن يكون بحذر ، وتقدير ما ينبغي أن يقال ، وأن لا يطلعوا على أسرار المسلمين بحجة الصدق.

الخاتمة:

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث حيث طرحت فيه النقاط التالية:

1- إن الإنسان في طبيعته كان ظلوماً جهولاً.

2- إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض لن يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بالعلم والعدل.

3- إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل.

4- للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام: العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد.

5- كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد وذلك للحاجة الماسة إليه ، خاصة في هذا العصر الذي بغى بعض الناس فيه على بعض.

6- للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ،

وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين.
7- إن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين:
أ- لجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله والذي يؤدي بدوره إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق.
ب- الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل.
8- إن وسائل رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغها الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه وسار عليها سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه.
أما وسائل رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان بتلك الوسائل ولا يعمل بها ، وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- بقوله:
»وإن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين ، وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد. والاعتبار: ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد: أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً« ا هـ (17).
خلاصة القول في مفتاح العدل أنه تقوى الله عز وجل ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، حيث يقول الله عز وجل: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) حيث إنه لا مفتاح للعدل إلا بالتقوى ، والتقوى فقط.
وتبقى كلمة أخيرة في هذه الخاتمة أنصح نفسي وإخواني الدعاة من أهل السنة ، بأن نتقي الله عز وجل ، ونصلح ذات بيننا ، وان نلزم أنفسنا بالعدل في أقوالنا وأعمالنا ، وأن نحذر من نزغات الشيطان ، فكما أسلفنا في ثنايا البحث إن أعظم فرحة للشيطان يوم أن يفرق بين المسلمين ، ويخالف بين كلمتهم ، فهو ما يألو يسعى للتحريش بين المسلمين كما جاء ذلك في صحيح مسلم عن جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- »إن الشيطان يأس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن رضي بالتحريش بينهم«(18).
وإن الواجبات الملقاة على أهل السنة اليوم أكبر وأضخم مما تستطيعه طائفة واحدة من طوائف أهل السنة ، فإن لم يسعَ المصلحون والمتقون من أهل السنة لجمع الكلمة وتأليف القلوب فإن فساداً كبيراً لاشك نازل كما قال عز وجل: ((والَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ

وفَسَادٌ كَبِيرٌ)) [الأنفال 73] أي إلا يوالى المسلمون ويعادي الكافرون تكن فتنة للناس.(19).
أسأل الله عز وجل أن يجمع دعاة الإسلام على الحق ، وأن يؤلف بين قلوبهم ويسدد آراءهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، إنه سميع مجيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1- تفسير ابن كثير ، ج 4 ، ص 307 ط دار الفكر.
2- في ظلال القرآن ، ج ه ،ص326 ط. دار المعرفة اللبنانية.
3- فتح الباري ج 7 ص 307 ، باب فضل من شهد بدراً. ط. السلفية.
4- مفتاح دار السعادة ، ص 192،ط 2: المصرية.
5- شرح مسلم للنووي ج 17 ص 157 ، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها.
6- الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب تحقيق نجم خلف ، ص 32 ، دار ابن القيم.
7- شرح مسلم للنووي ج 21 ص 212.ط. دار الكتب العلمية.
8- البداية والنهاية ج 14 ص 139. ط. دار المعارف.
9- الفرق ين النصيحة والتعبير ص 31،32؟دار ابن القيم.
10- خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع محمد أحمد عاشور ص 123 ، دار الاعتصام.
11- مجموع الفتاوى ، ج 3،ص 348.
12-تفسير ابن كثير ج 5/191 ط. دار الفكر.
13 - فتح الباري (57) ص 137 ج 1-السلفية.
14- مدارج السالكين ، ج 2 ، ص 320 ، تحقيق محمد الفقي - دار الكتاب العربي.
15- مجموع الفتاوى ج 28 ن ص 51-57.
16- البخاري 5 / 219 البيوع ، مسلم رقم (1607) في المساقاة.
17- خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع د. محمد أحمد عاشور ، ص 62. دار الاعتصام.
18- شرح مسلم للنووي ، ج 17 ، ص 157 ،ط. المطبعة المصرية ومكتبتها.
19- تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 354 ، ط. دار الفكر.

تمت بحمد الله